الغيب والشهادة في القرآن الكريم (٥)

لكن الله يشهد بما أنزل إليك

عبد المجيد بن محمد الغيلي

١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م

موقع رحى الحرف

لكن الله يشهد بما أنزل إليك

عبد المجيد بن محمد الغيلي

١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م

موقع رحى الحرف

(ترقيم الكتاب موافق لنسخة المؤلف)

للاقتباس:

لكن الله يشهد بما أنزل إليك، عبد المجيد بن محمد الغيلي، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م، منشور على موقع المؤلف: رحى الحرف، ص ...

الفهرس:

مقدمة:

تناولت في القسم الأول شهادة الله بما أنزل، وهو القرآن الكريم، خاتم كتبه. وقد بينت مفهوم علم الله، وأن القرآن كله علم الله، بينه بلسان عربي مبين. والمفهوم الشامل للقول: إن القرآن معجز بعلمه، وخطأ قصر الإعجاز العلمي على ما يسمى العلم التجريبي. وتناولت بيان القرآن الكريم، وكيف يتحقق التحدي بالإتيان بمثله، ورفضت القول بتجزئة إعجاز القرآن إلى علمي وبياني... إلخ.

وتناولت كيف أن القرآن يصدق على جميع الأزمنة، ووصلت إلى ان إعجاز القرآن (إعجاز طَبَقي)، يشبه الطبقات، فدلالة الكلمة في القرآن الكريم، غير خاضعة للزمنية، فالدلالات الزمنية طبقاتها الدلالية محدودة، قد تحتمل تأويلات معدودة. أما الدلالة الطبقية للكلمة القرآنية فتظل تتكشف باستمرار، وكأن الكلمة تتجدد كل مرة، وكأنها تقال لأول مرة. وهذا يتناسب مع العلم الطبقي للإنسان، فهو يؤول كلمات الله تأويلا طبقيا وليس نهائيا. وبينت بأننا ما زلنا ندرك الإعجاز البياني للقرآن الكريم. بل إن الناس اليوم يدركون من الإعجاز البياني ما لم يدركه السابقون.

وتحدثت عن (التعدد الموحّد) في خلق الله وفي علمه، وأقصد بذلك: (الوحدة التي تختفي وراء التعدد)، فلا تفاوت في خلق الرحمن، ولا اختلاف في قول الله.

وبينت كيف يقع التحدي بعلم الله سبحانه وتعالى، وعِلْم الإنسان طَبَقي لا نهائي. وعِلْم الله نهائي؟ وذلك من خلال التأويل.

وبينت أن التأويل في القرآن الكريم: هو مطابقة عالَم الغيب لعالَم الشهادة، ومطابقة عالَم الشهادة غير المدرك لعالَم الشهادة المدرك. وأهل العلم يعلمون التأويل الطبقي، أما التأويل التام النهائي فلا يعلمه إلا الله. وبينت العلاقة بين (الإدراك الطبقي) لعلم الله، و(التأويل الطبقي) لكلام الله. وقررت الفرق بين التأويل الطبقي والتأويل التام، والإدراك الطبقي والإدراك التام.

كما تناولت الشهداء الآخرون بما أنزل الله، وهم الملائكة، وأهل الكتاب. وجدال شهود الباطل الذين شهدوا زورا بأن القرآن ليس من عند الله.

وتناولت في القسم الثاني شهادة الله برسالة رسوله وبيناته على ذلك، وشهادة أهل الكتاب برسالته، وجدال شهود أهل الباطل.

اللهم آمنّا بما أنزلت، إنه الحق من ربنا. فاكتبنا مع الشاهدين.

عبد المجيد محمد علي الغيلي

الرياض

رمضان – ١٤٣٥هـ / يوليو ٢٠١٤م

abdmmys81@hotmail.com

القسم الأول: الشهادة بـ(القرآن)

(١) شهادة الله بما أنزل:

قال تعالى: (لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا).

الشهيد هو الله سبحانه وتعالى، والمشهود به هو القرآن (ما أنزل إليك)، وشهادته سبحانه وتعالى أنه نزل من عنده، وأنه لم يَفْتَرِهِ بشر.

(وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)،

وقال: (وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ).

والسؤال: ما طرق إثبات هذه الشهادة؟

لهذه الشهادة ثلاثة طرق، وهي: البينة، والقَصّ، والقسم.

أولا: إثبات الشهادة بالبينة:

ذكرت الآية بينة الشاهد، وهي قوله (أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ)، فالبينة هي علم الله الذي ضمنه في كتابه المنزل. فالقرآن هو المشهود به، وبينته فيه، والشاهد لا يشهد إلا بعلم، فالمعنى: أن الله يشهد بهذا القرآن، وبينته علمه الذي فيه. وهذا كقوله (فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ)، وقوله: (قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ). (وكفى بالله شهيدا). **أي: حسبك به من شهيد عليم، يشهد بالحق، ويقيم البينة على شهادته.**

(أ) ما المقصود بـ(علم الله)؟

والسؤال المهم جدا، هو: ما المقصود بعلم الله، في قوله (أنزله بعلمه)، وقولنا أن بينة القرآن هي علم الله؟

القرآن الكريم كله علم الله، وكل كلمة فيه هي من علمه سبحانه وتعالى.

ومثل ذلك كمثل المخلوقات، فكلها مخلوقاته، وكل نوع منها من خلقه، وكل جزء من خلقه، وتراكيب الجزء من خلقه. فالإنسان هو من خلق الله، وكل فرد منهم يصدق عليه أنه خلق الله، وكل عضو في الجسم (كالعين والرأس والرجل) يصدق عليه أنه خلق الله، ... وهكذا كل نسيج، وكل خلية.. فكله يصدق عليه أنه خلق الله سبحانه وتعالى.

كذلك القرآن الكريم، فهو كله علم الله، وكل عشر سور منه من علمه، وكل سورة منه يصدق عليها أنها علم الله، وكل آية منه يصدق عليها أنها علم الله، وكل كلمة منه كذلك.

فالقرآن الكريم كله علم الله، وهذا العلم بيّنه الله بلسان عربي مبين. (وسأتحدث لاحقاً عن: بيان القرآن الكريم).

فشهادة الله سبحانه وتعالى بما أنزله، وأثبت هذه الشهادة بأنه أنزله بعلمه. فكل كلمة من القرآن الكريم بينة على علم الله سبحانه وتعالى، وشاهد على أنه ليس بقدرة أحد من الخلق أن يأتي بمثله.

وعلم الله الذي فيه، يشمل كلامه عن عالَم الغيب والشهادة، فهو سبحانه (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ). [راجع: عالِم الغيب والشهادة]، سواء أنباء الغيب، أو أخبار الغيب، أو الغيب المحجوب بنوره. ويشمل هدايته للناس، ودعوته لهم، وموعظته لهم، وتذكيره لهم، وتشريعه لهم. فعلم الله إذن بينة القرآن الكريم.



ومن الوهم قصر ذلك على (ما يسمى: العلم التجريبي)، حيث شاع مصطلح (الإعجاز العلمي في القرآن الكريم)، وقصره على (العلم التجريبي)، ويقصدون به: (إخبار القرآن الكريم أو السنة النبوية بحقيقة أثبتها العلم التجريبي، وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول ‑صلى الله عليه وسلم).

فهذا بلا شك هو جزء من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، وليس كله، فالإعجاز في القرآن الكريم ليس متعدداً، ولا مجزأ، ولكنه إعجاز واحد. هذا الإعجاز بينه سبحانه وتعالى بأنه علمه في القرآن الكريم، وكل القرآن علمه، وليس بعض آياته التي فيها إشارات إلى آيات الخلق.

والعلم التجريبي، هو بينة صادقة على شهادة الله بصدق القرآن الكريم، وأنه نزل من عنده. وللباحثين فيه جهود قيمة، وقد سدّوا ثغرة كبيرة في هذا الجانب، وينبغي أن تكون عناية الأمة به أكثر وأدق. والعلماء التجريبيون في مختلف التخصصات (الطبية والفلكية والجيولوجية والأحيائية... الخ، مما ورد ذكره في القرآن

الكريم)، مثلهم مثل غيرهم من العلماء الذين يدركون علم الله في كتابه، سواء في تشريعه أو هدايته أو أنبائه.. كلهم شهداء بصدق القرآن الكريم؛ إذ يريهم الله آياته فيتبين لهم أنه الحق، فمن جادل بالباطل بعد ذلك ليدحض به الحق، أو أنكر الحق فهو فاسق.

فعلم الله سبحانه وتعالى الذي هو بينة على شهادة الله بما أنزل، يتحقق في كل سورة من سور القرآن الكريم. وعند حديثي عن بيان القرآن الكريم سأفصل القول في المسألة.

❖ ❖



(ب) بيان القرآن الكريم:

تحدى اللّه البشر أن يأتوا بمثل القرآن، والتحدي ليس للعرب أو لفصحائهم فقط، بل هو للإنس والجن: (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا).

واللّه سبحانه وتعالى قد تحدى الناس بأن يأتوا حتى بسورة مثله: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)، **ومن ثم فإعجازه يقع في كل سورة من سوره. قالت د. عائشة عبد الرحمن: (وقد جعل سبحانه في صفة كل سورة أن تكون معجزة بنفسها لا يقدر أحد من الخلق أن يأتي بمثلها).**



(ب -١) كيف يتحقق التحدي بالإتيان بمثله؟

والسؤال: كيف يتحقق التحدي بالإتيان بمثله؟

هناك اختلاف طويل الذيل بين العلماء في وجوه إعجاز القرآن الكريم، الذي تحدى به الناس، فيصدق التحدي على من كانوا في عهده، وسائر العصور حتى يوم القيامة. دون اختصاصه بعصر دون عصر.

وأغلبهم يرده إلى بيانه ونظمه الباهر. وأغلب من كتب في إعجازه البياني من المتقدمين، رد هذا الإعجاز إلى الوجوه البلاغية، ونظْمه الذي لا يمكن لبشر أن يقول مثله. أما علماء البيان المعاصرون فقد بينوا وجوها كثيرة من وجوه إعجازه البياني، وكثير

منها يظل مشدودا إلى الوجوه البلاغية. كما أن هناك جهوداً مقدرة لعلماء اللغة باختلاف مشاربهم، في هذا المجال.

ولا أقصد هنا تتبع تلك الجهود، بقدر ما أريد الإشارة إلى أنه يغلب على الكتابات فيه طابع: التفسير البياني لا الإعجاز. والبحث في الإعجاز بحاجة إلى نقله من مجرد تفسير بياني، يخضع للذوق، إلى إعجاز (بياني)، ينطلق من معايير بيانية، مستندة إلى العلم الذي ضمنه الله في كتابه.

والمأخذ العام هو تجزئة إعجاز القرآن، والقول بأن ثمة إعجازاً بيانياً، وآخر علمياً، وثالثاً ... وفي الفقرات القادمة سأبين أن الإعجاز في القرآن الكريم هو إعجاز واحد.

وبهذا يظل التحدي مستمرا إلى قيام الساعة، فمهما حاول البشر أن يأتوا بكلام (يزعمون أنه مثل القرآن، وقد حاول بعضهم)، فإنه يكون هراء غثاء.

❖ ❖

الذي يبينه القرآن الكريم أن التحدي والإعجاز إنما هو بعلمه سبحانه وتعالى، الذي ضمنه كتابه.

ووجه التحدي أن القرآن الكريم تضمن علمه سبحانه وتعالى، وقد عبر عن علمه بكلمات عربية غاية في الدقة الدلالية على المراد. فكان التحدي متضمنا الأمرين معا: أن يأتوا بمثله في علمه ونظمه.

والنظم أقصد به: البيان، فهو القالب الذي (صيغ) فيه علم الله

سبحانه وتعالى.

فالله تحدى الخلق بما أعجزهم به. فكما أعجزهم القرآن الكريم بعلمه، فهو معجز بنظمه. فكيف يأتي بنظم مثله من لا يحيط بعلمه. فالنظم لا يتصور إلا بالمضمون. والقرآن الكريم نظمه دال على مضمونه، ومضمونه علم الله سبحانه وتعالى.



قال تعالى: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)، **فقد نزل بلسان عربي، ووصف بأنه مبين، أي أنه في غاية الإبانة، وأدقها، فكل كلمة تبين الدلالة المنوطة بها إبانة تامة. ولذلك سماه: بيانا:** (هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ)، **وتكفل سبحانه وتعالى بإبانته** (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ).

وكما قلت إن هذا العلم له قالب يصاغ فيه، وهذا القالب هو نظم القرآن الكريم، الذي جاء بيانا للناس، وهو يتحقق في كل سورة من سوره، بل في كل آية من آياته، بل في كل كلمة من كلماته.

فكل كلمة في القرآن الكريم لها موقعها، وسياقها، وارتباطاتها الدلالية، واقتراناتها التركيبية، وأي إزاحة لها عن موقعها يخلخل النظم.

ومثل ذلك كمثل خلقه سبحانه وتعالى، فالله خلق وسوى ما خلقه، وصوره أحسن تصوير. (فكل شيء له تصميمه الذي يتناسب بدقة مع ما خلق له، ووظيفته،...)، وهو قوله سبحانه وتعالى: (مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ)، **فهو مصمم بدقة، وكل شيء في المخلوق**

مرتبط بشبكة هائلة من العوامل الأخرى، التي تجعل منه تصميما محكما. ويقول العلماء أن قوانين الخلق وأنظمتها محكمة بدقة متناهية، والخطأ فيها ولو بنسب ضئيلة غير وارد. ولو حدث ذلك لاختل نظام الخلق.

وكذلك القرآن الكريم، فهو علم الله، وقد أنزله بلسان عربي مبين. (فنظمه يقابل التصميم في الخلق)، فما ترى في بيان القرآن من تنافر، ولا اختلاف، ولا تفريط. (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا). لكنه من عند الله فما فيه اختلاف، بل ائتلاف تام بين معانيه وألفاظه، واتساق واطراد في جميعه.



□

(ب -٢) الإعجاز الطبَقي:

كيف يصدق تحدي القرآن على جميع الأزمنة؟

وهنا يتردد سؤال، وهو: كيف يَصدُق تحدي القرآن على من كانوا في زمن النبي صلى اله عليه وسلم، ولم يتبين لهم العلم الذي تبين لنا اليوم؟ وأيضا أن التحدي وقع قبل أن يكتمل نزول القرآن الكريم؟

والجواب أن التحدي يتحقق في سورة من سوره، كما يتحقق فيه كله. والتحدي يقع بالعجز عن الحد الأدنى من معارضته، وكذلك الإعجاز يقع بالحد الأدنى من إدراك أسراره المعجزة، وعلم الله فيه. وكلما ازدادت البشرية علما ازداد تحدي القرآن الكريم لهم، وازداد بيان إعجازه. فيصدق التحدي والإعجاز على من كانوا يركبون الناقة في أسفارهم، كما يصدق على من يركبون السفن الفضائية.

والله سبحانه وتعالى دعا الناس إلى التفكر في الخلق منذ نزوله، فمثلا قوله: (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ). فالإنسان قبل ١٤٠٠ سنة، يبصر في نفسه ويجدها بينة شاهدة بوحدانية ربه. والإنسان في القرن الخامس عشر الهجري كذلك يبصر في نفسه فيجدها بينة شاهدة بوحدانية ربه. فالنتيجة واحدة، والمقصد واحد، ولكن اختلفت الطريقة، والمعرفة، فشتان بين معرفة النفس قبل ١٠٠ عام فضلا عن ألف عام، وبين ما وصلت إليه معارفها اليوم.

وكذلك نقول في القرآن الكريم، فما يتحقق في خلق الله

يتحقق في كلام الله. فالعربي قبل ألف عام كان يفهم دلالة الكلمة بحيث يصدق عليه التحدي ويقع الإعجاز، واليوم يتحقق ذلك مع تعقد دلالة الكلمة. فمثلاً، كلمة (علقة)، أو (يصوركم)، أو (أم السماء بناها)...الخ. تتطور دلالاتها مع تطور العلوم، والإعجاز يصدق على دلالتها البسيطة كما يصدق على دلالتها المعقدة. (كالعين مثلا، بتقدم العلوم أصبح يدرك الإنسان أنظمتها المعقدة، وتصميمها البديع، وكلما تقدم العلم ازداد إدراكه واكتشافه لها)، وكذلك كلمات القرآن الكريم، فكلما تراكمت المعارف وتقدمت العلوم المختلفة، ازداد إدراكه لدلالة الكلمة. فالقرآن نزل يخاطب الناس ويتحداهم ويعجزهم إلى يوم القيامة.

من هنا يتبين أن الإعجاز في القرآن الكريم، **إعجاز طَبَقي**، يشبه الطبقات. ولا حد لتلك الطبقات، كلما ظن الإنسان أنه أصبح أكثر تقدما وعلما ومعرفة، يكتشف طبقات جديدة من إعجاز القرآن الكريم، تعجزه وتبهره، وتبين له أنه الحق من ربه، وأنه ليس بسابقٍ ربَّه، ولا معجزٍ خالقَه.

وهذا الأمر يتحقق في مضمون القرآن ونظمه، فدلالة كل كلمة فيه دلالة طبقية، تتكشف طبقاتها باستمرار، كما تتكشف آيات الخلق وبيناته باستمرار.



بينة الله في الخلق والعلم:

ثم إن البينة في الخلق تتحقق في الكائن الحي (كالإنسان

مثلا)، وفي كل جزء من أجزائه (كالعين). وكذلك القرآن الكريم يتحقق الإعجاز فيه كله، كما يتحقق في سورة من سوره، بل في آية من آياته، فكل ذلك علم الله سبحانه وتعالى.

وكما تحدى الله الناس بخلق ذباب (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ)، **فكذلك تحداهم بأن يأتوا بسورة من مثل هذا القرآن الكريم.**

وكما أعجزهم بإبداع خلقه وإحكامه (مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ)، **فقد أعجزهم ببيان كلامه وإحكامه** (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا)، **وقال:** (كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ).

وتلاحظ أنه سبحانه وتعالى يدعو الإنسان أن يرجع البصر كرة بعد كرة، ومرة بعد مرة، ليكتشف كل مرة أن خلق الرحمن محكم لا تفاوت فيه. فكلما تقدم علم الإنسان رجع بصره إلى الخلق فتأكد له الإبداع، وتجلى له الإحكام، وسيستمر ذلك حتى قيام الساعة. فالآية تشير إلى أن الإنسان سيتقدم علمه باستمرار، وكل مرة يركب طبقا وراء طبق، ويصل إدراكه إلى طبقات جديدة من علم الله سبحانه وتعالى. فقوله (فارجع البصر)، أي كلما وصلت إلى طبقة من العلم فلا تقف عندها، واخترقها إلى طبقة ثانية... فلن تزداد إلا إدراكا لعظمة من خلق، وإبداع ما خلق.

وكذلك يدعو الإنسان أن يتدبر كتابه، وكل مرة تتدبره

البشرية تجد أنه كتاب قد أحكمه الله، فلا اختلاف فيه. وكل مرة يعيدون النظر فيه تتجلى لهم هذه الحقيقة. وكلما تقدم علم الإنسان وظن أنه قد سبق القرآن يعيد النظر فيه فيجد أن القرآن الكريم قد سبق، وتتكشف له طبقات علمية ودلالية جديدة.

والكتاب الذي بحاجة إلى تفسيره باستمرار، هو القرآن الكريم، ولكن ليس بتكرار التفاسير السابقة، بل بكشف الطبقات الدلالية الجديدة. ومن ثم يحتاج الناس في كل عصر إلى معجم دلالي جديد للقرآن الكريم، فالإنسان اليوم لا يكفيه معجم الأصفهاني، الذي يعكس زمنا تاريخيا، وطبقات دلالية زمنية.

ومن كل ما سبق يتبين أن دلالة الكلمة في القرآن الكريم، غير خاضعة للزمنية، فالدلالات الزمنية طبقاتها الدلالية محدودة، قد تحتمل تأويلات معدودة. أما الدلالة الطبقية للكلمة القرآنية فتظل تتكشف باستمرار، وكأن الكلمة تتجدد كل مرة، وكأنها تقال لأول مرة.

وسأضرب مثلا للدلالة الطبقية:

- فالبشرية كانت تظن أن أصغر الأشياء التي لا تتجزأ هي العنصر البسيط ممثلا في الماء والتراب والهواء والنار (تبعاً لأرسطو).
- ومنذ قرنين من الزمان تبين لهم خطأ رأي أرسطو، وأن تلك العناصر مركبة من ذرات أصغر، فالماء، مثلاً، يتركب من ذرتين: الأكسجين والهيدروجين. وعندئذ ظنت البشرية أن

الذرة هي أصغر شيء وأنها لا تقبل التجزئة، وذلك حتى عهد قريب. [وقد قامت نظريات عديدة على هذا الإدراك، وثمة تطبيقات عملية أفادت من هذا التصور].

- ثم اكتشفت البشرية أن الذرة مركبة من نواة وجسيمات، وظُنّ أن تلك الجسيمات هي أصغر شيء، وسمي (البروتون) بهذا الاسم، ومعناه: الأول؛ ظنا من العلماء أن هذا الجسيم هو اللبنة الأساس الأولى في بناء المادة. وبنهاية ١٩٦٠ وصل عدد الجسيمات إلى ٦٠ جُسيماً. ونشأ علم "فيزياء الجسيمات الأولية".
- ثم اكتشفوا أن الجسيمات الأولية تتألف من "كواركات". وتتأثر بالقوى الأربع. (إذ قالوا إن الجسيمات الأولية تتفكك إلى جسيمات "طاقية" عرفت بالقوى الأربع الكبرى: الجاذبية، والكهرومغناطيسية، والقوى النووية الضعيفة، والقوى النووية الشديدة).
- وهناك نظريات جديدة تبحث عما هو أصغر من ذلك. ولا ندري ما الذي تخبئه الاكتشافات. (انظر: الموسوعة العربية السورية: الجسيمات الأولية).

فهم كانوا ينظرون إلى الذرة على أنها (الطبقة الأخيرة) التي ليس وراءها شيء من الجزيئات. ثم تكشفت لهم طبقات أدق.

وهكذا الكلمة القرآنية، يظن البشر أنهم وصلوا في دلالتها إلى الطبقة الأخيرة لها، ثم تتكشف لهم طبقات دلالية جديدة. فتحقق تحدي القرآن الكريم وإعجازه.

❖ ❖

لتركبن طبقا عن طبق:

وقوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾، **هو إخبار للبشرية بأنها ستنتقل من طبق إلى طبق آخر. وهذا الانتقال عبر عنه بقوله (لتركبن)، فهم فاعلوه، وليسوا منفعلين به، أي أنهم بتقدمهم يقومون بالانتقال من طبق إلى طبق. ولفظ (الركوب) دال على الإرادة والفعل البشري. وقوله (عن) ولم يقل (بعد)، أي أنهم يصلون في ركوبهم إلى طبق ما، ثم لا يقفون عنده، بل يتقدمون، فيصلون إلى طبق آخر، وهكذا، فكأن ركوبهم الطبق الآخر نشا عن الطبق الأول. وهم لم يكونوا يصلون إلى اللاحق إلا إذا وصلوا إلى السابق.**

فالآية تخبر الإنسان بكيفية إدراكه لعلم الله سبحانه وتعالى، فهو سيدركه طبقا عن طبق. وعقبها قال: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾، **فكل طبق يصلون إليه من علم الله هو دليل جديد على شهادة الله بوحدانيته، وعلى شهادته بما أنزله، فكيف لا يؤمنون بالله، ولا يسجدون له وهم يسمعون القرآن الذي فيه علم الله سبحانه وتعالى.**

علم الإنسان طبقي وعلم الله نهائي:

فالإنسان علمه طبقي، وهذه سنة الله سبحانه وتعالى، فعلم الإنسان يقوم على التراكم والتجدد، حتى يدله على جهله، فكلما وصل إدراكه إلى طبق جديد من العلم، أيقن أنه كان يجهله من قبل. فمثلا أدرك طبقة الذرة فظن أنها نهاية الأشياء، ثم أدرك طبقا

آخر (النواة والجسيمات الذرية) فظن أنها الطبق الأخير... الخ.

أما علم الله سبحانه وتعالى فهو علم نهائي (غير طبقي، وغير متجدد)، فهو يعلم كل شيء مفصلا. وأقصد بأنه علم (نهائي) أنه يعلم كل شيء عن كل شيء، فهو يعلم منتهى الشيء، كما يعلم مبتدأه، سبحانه وتعالى (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ). **قال تعالى:** (فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا)، **أي: منتهى علمها. وقد تحدثت عن هذه المسألة عند حديثي عن (الغيب).**

علم الله نهائي: يعلم منتهى كل شيء، ولا يستجدّ في علمه شيء. أما علم الإنسان فهو طبقي، غير نهائي، متجدد. فكونه غير نهائي، أي: أنه لا يصل إلى منتهى العلم بالشيء، بل يتجدد علمه باستمرار، وكل مرة يبلغ مستوى من العلم لم يكن قد بلغه من قبل، وهكذا يظل علمه متجددا دون أن يصل إلى نهاية العلم بالشيء، فهو غير نهائي، وهو دليل نقص. بخلاف علم الله النهائي، الذي له الكمال والتمام، والنهاية والغاية.



كتاب متشابه مثاني:

وهذه الآية تفسر قوله تعالى: (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ)، **فهو كتاب متشابه مثاني، فالمثاني جمع: مَثْنَى، وكونه مثنى، أي أنه يُثْنَى مرة بعد مرة، فهذا مقتضى التدبر، يتدبر الناس آياته مرة بعد مرة، وكل مرة تتبين لهم طبقة من طبقات دلالته، كما قال** (ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ)، **فالمعنى أنكم كلما رجعتم**

البصر في خلق الله أدركتم طبقا من علم الله، وتبين لكم إحكامه. وكذلك القرآن الكريم فآياته مثاني، بمعنى أنكم كلما تدبرتم فيه وثنّيتم تدبره، تبين لكم طبق من علمه في تنزيله.

وهذا يعني أن الناس كلما بلغوا مستوى من العلم، فأدركوا به علم الله في خلقه أو أوّلوا علمه في كلامه، إذا بمستوى جديد ينفتح لهم، فيكون طبقا ناشئا عن الطبق الأول.

وقوله (متشابها)، يبين الدلالة الطبقية، فالكتاب متشابه، فكل كلمة منه دلالاتها متشابهة، تشبه بعض الدلالات بعضا، إذ هي دلالات طبقية، فكل طبقة تشبه الطبقة السابقة، مع أن لكل طبقة صورتها الفريدة، ومستواها المتميز. فالمتدبر يرى الآية من كتاب الله فيحسب أنه بلغ منتهى التأويل فيها، وأنه أحاط بدلالتها، ومع كَرّة التدبر يجد طبقة دلالية جديدة، تشبه الدلالة الأولى، فهي تشبهها في أنها لا تختلف عنها في مادتها الدلالية الأصلية، ولكنها تأتي بطبقات دلالية جديدة، (كما يشبه الولد أمه، ولكنه يختلف عنها). فذلك كون الكتاب متشابها.

قال تعالى: (كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا)، **فالثمرة الجديدة تشبه الثمرة السابقة، ولكنها تختلف عنها. فهم يقولون: هذه الثمرة مثل الثمر السابق، والحقيقة أنه يشبهه وليس مثله. والله خلق الخلق متشابهين، ولكنهم ليسوا متماثلين. فالناس مثلا متشابهون، بعضهم يشبه بعضا، ولكن كل فرد منهم له صورته وميزاته التي يختلف بها عن غيره. فكذلك**

كلمات القرآن الكريم وآياته، متشابهة، بعضها يشبه بعضا.

فالكلمة القرآنية ذات دلالة متشابهة، تختلف طبقاتها الدلالية، وصورها التأويلية. وهي مع ذلك مثاني متشابهة.

ومن ثم فالناس لا يستطيعون تأويل الآيات المتشابهة تأويلا تاما، بل تأويلا طبقيا، كلما تجدد علمهم، وانفتح لهم طبق من الغيب، أمكنهم تأويل علم الله في كلامه بعلمه في خلقه.



القرآن معجزة غير مجزأة:

إن إعجاز القرآن الكريم لا يقبل التجزئة، فليس هناك إعجاز بياني وآخر علمي وآخر تشريعي.... بل هو معجزة واحدة غير مجزأة، هذه المعجزة هي علم الله والكلمة التي تجلى فيها هذا العلم. (فهو إعجاز بعلم الله، وبيانه الذي نُظم فيه).

وما ذكرته آنفا عن (طبقية الإعجاز)، الذي يتحقق بالنسبة للبشر في إدراكهم لعلم الله وتأويلهم لبيانه، مرة بعد مرة، وكَرّة بعد كَرّة. فهي طبقية بالنسبة لإدراك البشر. وهذه الطبقية تخاطب كل المستويات، من المستوى الأول حتى آخر مستوى يمكن أن يصل إليه البشر، وفي كل مستوى يصدق التحدي والإعجاز بما يدركونه من علم، فيجدون أن علم الله يسبقهم ويعجزهم، علما ونظما. فيكون الإعجاز.

وبهذا فلا نقول أن الإعجاز العلمي اختصت به البشرية اليوم

بعد تطور أجهزتها... ولكنا نقول أن القرآن معجز بعلمه، والجديد ليس في الإعجاز العلمي، وإنما في الطبقات العلمية الجديدة التي تعجز المستويات العلمية الجديدة للإنسان.

ويتحقق ذلك بعلم الله وبيانه الذي نُظم فيه هذا العلم. ومن ثم فلا يستساغ القول بتجزئة الإعجاز، سواء التجزئة الدلالية (إعجاز علمي، بياني...)، أو التجزئة الزمنية (إعجاز يختص به قرن عن قرن). ولكن هي معجزة واحدة، تتجلى كل مرة بالمستوى الذي يدركه البشر، ويتحقق هذا التجلي (للبشر) في: إدراكهم لعلم الله، وإدراكهم لبيانه.



كل كلمة معجزة:

إذا تقرر هذا، فإنه يتبين أن الدلالة الطبقية للكلمة، هي محور إعجاز بيان القرآن الكريم، وإدراكنا للدلالة الطبقية للكلمة يتطابق مع إدراكنا للدلالة الطبقية لعلم الله في كتابه، وفي آياته في الآفاق وفي الأنفس، وفي تشريعه وهدايته، وفي تعليمه وإرشاده. وسيكون بالمستوى المعرفي الذي وصل إليه إدراك البشر.

والقول بأن كل كلمة في القرآن الكريم معجزة، يعني أن كل كلمة ليست مجرد أصوات وحروف تتألف منها، ولكن الكلمة تأخذ إعجازها من وظيفتها ودلالتها وموقعها في نظام كامل، فالكلمة ذات نظام دلالي طبقي، يرتبط بالنظام البياني العام في القرآن الكريم كله. كالعين مثلاً، هي ليست مجرد جهاز مستقل، ولكنها تأخذ

وظيفتها وحيويتها من موقعها في الجسم بأكمله.

فالقول بأن كل كلمة في القرآن الكريم معجزة، لا أقصد به الكلمة مجردة عن نظمها في بيان القرآن الكريم. بل أتحدث عن كلمة لها موقعها في نظام بياني كامل.

فكل كلمة في القرآن الكريم لها موقعها الدلالي، وتأتي في موقعها المناسب الذي لا يمكن أن تحل فيه كلمة غيرها، وهي ذات دلالة خاصة، ترتبط بدلالة عامة. هذه الدلالة تخضع لمجموعة من العلاقات، منها:

١) السياق، سواء سياق الكلمة في السورة، أو سياقها في المجال الدلالي الذي تتحدث عنه.

٢) الارتباطات الدلالية الداخلية للكلمة، في إطار دلالة الجذر العام للكلمة، ومشتقاته المختلفة، وصيغه الصرفية.

٣) الارتباطات الدلالية الخارجية للكلمة، مع النظائر والأضداد. وكذلك مع الاقترانات التركيبية للكلمة. وكذلك مع الكلمات التي تستخدم في المجال الدلالي نفسه (كلمات الخلق مثلا).

٤) اعتبارات أخرى، منها: تكرار الكلمة سواء في السورة أو في القرآن الكريم، وارتباط ذلك بدلالتها. وارتباط تأويل كلمة بما أدركه البشر من علم الله. وإيقاع الكلمة، وتأثيرها النفسي. وعوامل أخرى، بعضها نعلمها وكثير

منها لا نعلمها.

فالدلالة العامة للكلمة مثلها مثل النوع الواحد من المخلوقات، فكل نوع له صورة عامة، كالإنسان الذي صوره الله صورة عامة يتشابه فيها الناس كلهم، ثم إن كل فرد من هذا النوع له صورته التي تميزه عن غيره. وكذلك كلمات القرآن الكريم، فالجذر الدلالي للكمة (في القرآن) يعطي دلالة عامة (هي كصورة النوع)، وكل كلمة لها صورتها الخاصة (هي كصورة الفرد). وهذا يبين ألا مجال للقول بالترادف في القرآن الكريم. وهذه القضية لم تعد مثار جدال اليوم، وخصوصا مع تقدم البحث في إعجاز القرآن الكريم.



لماذا لا ندرك بلاغة القرآن كما كان العرب الأوائل؟

وهنا يرد السؤال: لماذا لا ندرك بلاغة القرآن كما كان العرب الأوائل؟

والسؤال إن كان يراد به التذوق البلاغي سواء للقرآن أو لغيره من النصوص، فهو وارد، وله إجابات عديدة. أما إن كان يراد بالسؤال أن إعجاز القرآن وتحديه البياني للعرب إنما يصدق عليهم، ونحن لا يصدق علينا ذلك التحدي البياني – فالسؤال غير مستقيم.

فمن خلال ما بينته آنفاً، يتبين لنا أن تحدي القرآن بعلمه وبيانه مستمر إلى يوم القيامة، وإعجازه مستمر للإنس والجن حتى قيام الساعة. وأنه لا يختص بمجال دون آخر، ولا بزمان دون آخر، ولا

بفئة دون غيرها.

فهو إعجاز للعرب كما هو إعجاز لغير العرب، وهو إعجاز للسابقين من العرب كما هو إعجاز للاحقين منهم، وهو إعجاز لعلمائهم كما هو إعجاز لعامتهم.

والقول بـ(طبقية الإعجاز)، وأنه يتحقق مع كل أحد (من الإنس أو الجن)، بعلمه وببيانه الذي نظم به ذلك العلم، فيه إجابة بينة على السؤال، بأننا ما زلنا ندرك الإعجاز البياني للقرآن الكريم. بل إن الناس اليوم يدركون من الإعجاز البياني ما لم يدركه السابقون.



فإذا تحقق عجز البشر عن الإتيان بمثل هذا القرآن (في علمه وبيانه الذي يصاغ فيه)، فيستيقنون أنه ليس بكلام بشر مثلهم، وأنه تنزيل من رب العالمين، فيؤمنون به، (وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ).



□

(ب -٣) التعدد الموحّد:

وهناك مسألة متصلة بإعجاز القرآن الكريم في علمه وبيانه، وهي: "التعدد الموحَّد"، وأقصد بذلك: (الوحدة التي تختفي وراء التعدد). فخلْق الله مثله مثل قول الله، كلاهما له صور متعددة، ووراء هذا التعدد وحدة باهرة.

لو تأملنا في "كتاب الخلق"، فسنجد أن المخلوقات صور متعددة، ففي هذه اللوحة البديعة تجد: الإنسان، والدواب، والطيور، والأسماك... كما تجد الأرض وجبالها وحجارها وترابها، تجد السماوات ونجومها ونيراتها، تجد النباتات وأزهارها وثمارها... هناك تعدد هائل، لا يحيط به علم الإنسان، فهو تعدد على مستوى الأجناس، وعلى مستوى الأنواع، وعلى مستوى أفراد كل نوع أيضاً. ولكن هذا التعدد كله يخضع لنظام واحد، تجد هذا النظام يتحقق أينما نظرتَ في ذلك الخلق. طبيعة الارتباط والاتصال والتأثر بين هذه المخلوقات تبين واحدية النظام الذي تخضع له. ولا زال العلماء في مختلف تخصصاتهم يكتشفون هذه السنن والأنظمة الموحدة، التي تسير المخلوقات وفقاً لها.

قال تعالى: (مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ)، **أي: ما ترى فيه اختلافا، بل خلق الرحمن كله متشابه يشبه بعضُه بعضاَ. والتشابه لا يعني التماثل، فهو متشابه غير متماثل. وكمثال على ذلك: البنية النسيجية، فالمخلوقات كلها ذات بنية نسيجية، الحيوانات والنباتات ذات بنى نسيجية، والسماء ذات بنية نسيجية (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ)، وحتى الكوارك ذو بنية نسيجية... الخ.**

ومن ذلك سنن "التنظيم الذاتي" لدى كل الكائنات، فكل كائن حي أو غير حي، مزود بتنظيم ذاتي، يمكنه من التأقلم مع البيئة، ومن توليد الحلول لما يعترضه، ولتنظيم علاقاته المختلفة، والحفاظ على التوازن. وكذلك يدرك الإنسان النظم الموحدة في الكائنات الحية (النباتات والحيوانات)، كالحركة والنمو والتكاثر والإدخال والتنفس والإخراج والتكيف والحاجة إلى الطاقة... ولا زال الإنسان يجهل كثيرا من النظم المتشابهة بين هذه الكائنات وغيرها كالسموات والأرض وما فيهن.

هذا التعدد وتلك الوحدة هي نفسها تتحقق في "قول الله"، كما تتحقق في "خلق الله". فتعدد الموضوعات والأساليب والأنماط البيانية، والانتقال من موضوع إلى آخر، كل ذلك مما جعل العلماء عبر العصور يسعون إلى تجلية مناسبات الربط بين السور والآيات، والبحث عن الوحدة التي تختفي وراء هذا التعدد. في مقابل من رأى أن ذلك التعدد لا تجمعه وحدة وإنما هو مقولات متفرقة...

غير أنّا حين ننظر إلى "خلق الله"، وما فيه من صور متعددة ذات نظام واحد، فإننا نقول بمثل ذلك في "قول الله"، فهو صور متعددة ذو نظام واحد. وكلما أدرك العلماء سرا من علم الله استطاعوا أن يفهموا طبيعة النظام الواحد الذي يسري في الخلق كله، وكذلك كلما أوّل العلماء طبقا جديدا من قول الله استطاعوا أن يفهموا طبيعة النظام الواحد الذي يسري في قول الله سبحانه وتعالى.

ولله المثل الأعلى، فلو أن ثمة صانعا عبقريا، صنع آلة، وفق نظام

معين، ثم ألف كتابا، فإنه سيتبع النظام الإدراكي نفسه في التأليف، فالذهن البشري كما يقول علماء الإدراك ينطلق في أقواله وأفعاله من خطاطات إدراكية واحدة، ينتج في ضوئها (سواء ما يقوله أو ما يفعله)، ولذلك يستطيع المحللون أن يعرفوا الفاعل أو القائل بمعرفتهم بخطاطاته الإدراكية، وأنماط الفعل أو القول (يفعل ذلك علماء الأسلوبية الإدراكية في نسبة قول لصاحبه، كما يفعله الشرطة في الكشف عن مجرم...الخ).

فالله سبحانه وتعالى، جعل نظام "قوله" كنظام "خلقه": (التعدد الموحَّد)، فمآلها إلى الخالق الواحد الذي لا شريك له. وهذا يبين وجها جديدا من أوجه إثبات أن القرآن الكريم كلام الخالق نفسه. فالنظام الذي وضعه في خلقه هو النظام نفسه الذي وضعه في كلامه.

وصدق الله العظيم، فقد نزه خلقه عن التفاوت، فقال: (مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ). **كما نفى عن قوله الاختلاف فقال:** (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا).

فلا تفاوت في خلق الرحمن، ولا اختلاف في قوله.

□

(ج) التأويل: كيف تتحقق هذه البينة؟

لقد جعل الله علمه بينة على شهادته بأن القرآن الكريم نزل من عنده، وأنه لم يَفْتَرِهِ بشر. وكما سبق أن قلت فالقرآن كله علم الله.

السؤال المهم في هذا السياق، هو: كيف يقع التحدي بعلم الله سبحانه وتعالى، وعِلْم الإنسان طَبَقي لا نهائي. وعِلْم الله نهائي؟

فالجواب أنه يقع بالتأويل. فكلما أدرك الإنسان طبقة جديدة من طبقات علم الله في خلقه، أو طبقاته في كلامه، فذلك جزء من تأويله. فتأويله يتحقق مرة بعد مرة، حتى يتحقق تمامه.

فالقرآن علم الله، ولا يمكن لأحد أن يحيط بعلمه، ولكن الإنسان يمكنه أن يدرك تأويله شيئا فشيئا، قال تعالى: (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)، **وقال:** (حَتَّى إِذَا جَاؤُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ). **فهم كذبوا بما أخبرهم به من الغيب، وقد استبعدوه، فكيف يكذبونه ولما يأتهم تأويله؟ كيف يكذبون بإمكانية البعث ولما يأتهم تأويله؟! أي: تحققه.**

علم الله يتضمن كلامه عن الغيب والشهادة، ومن الغيب أنباء السابقين، وأخبار ستقع. ومن ذلك كلامه عن الساعة، والقيامة، والجنة والنار... فكل ذلك من علم الله سبحانه وتعالى. والتأويل التام لذلك لا يكون إلا يوم القيامة:

(هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ).

ولأن التأويل التام لعلم الله الذي أخبرنا به من الغيب، لا يكون إلا يوم القيامة. فقد جعل الله سبحانه وتعالى نظام خلقه طبقيا متشابها، يستطيع الإنسان أن يدركه طبقا عن طبق. وكذلك جعل نظام كلامه طبقيا متشابها، يستطيع الإنسان أن يؤوله مرة بعد مرة. فيقع التحدي بما يمكن الإنسان أن يدركه من العلم، وليس بالإدراك التام.

فإذا تحقق عجز الإنس والجن عن التحدي والمعارضة في بعض تأويله، فهو دليل على تحققه في تأويله كله.

فلو افترضنا أن قوما عارضوا القرآن الكريم، فأي علم سيقولون فيه؟ هل ما يعلمونه من علم الشهادة؟ أم ما لا يعلمونه من علم الغيب؟ فعلم الشهادة لا يحتاج إلى تأويل، وأما علم الغيب فهو الذي يحتاج إلى تأويل. فإذا كتبوا شيئا وادعوا حدوث أشياء من الغيب — فأين تأويلها؟ سواء التأويل الطبقي أو النهائي.

قال تعالى: (أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ)**. أي: كيف يكتبون قرآنا وهم ليس عندهم علم الغيب؟ فالله هو عالم الغيب، فأنزل القرآن بعلمه للغيب والشهادة علما مفصلا نهائيا. وهذه الآية جاءت في سورتين: القلم والطور.**

أما القلم فقد ابتدأت بقوله: (ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ)**. فالله أقسم بالقلم الذي خلقه وكتب به علم الغيب كله حتى قيام الساعة، كتبه كله في الكتاب (اللوح المحفوظ). وهو المذكور في سورة الطور.**

وأما الطور فابتدأت بقوله: (وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ

مَنْشُورٍ)، **فالكتاب المسطور هو اللوح المحفوظ الذي سطر الله فيه علم الغيب والشهادة،** (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ). **ولا ندري بتأويل قوله (في رق منشور)، فهو لوح كما سماه القرآن الكريم، ولا ندري بكنه هذا اللوح، إلا أنه وصفه بأنه رق منشور. نحن نفسرها ولا نؤولها.**

والقرآن الكريم مسطور في ذلك الكتاب (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ)، **فالله عنده علم الغيب فهو الذي كتبه سبحانه، وأنزله بعلمه. ووعد الناس بأن سيأتي تأويله.**



مفهوم التأويل:

التأويل من الأَوْل، وهو الرجوع إلى الأصل، وأوَّلُ الشيء: أصله الذي تنبثق منه صوره المختلفة. فتأويل الكلام، يعني: رده إلى أوله أو أصله. ولا يمكن رد الكلام إلى أصله إلا بتحقق ما أخبر عنه.

فمن أخبرك أنه سيأتي غداً لزيارتك، فإن تأويل هذا الكلام هو تحققه مطابقا للواقع. فقد يأتي وقد لا يأتي.

والقرآن الكريم يسمي تعبير الرؤيا: تأويلا، فالمعبر يؤول الرؤيا، أو يبين الصورة التي تتحقق عليها، فإذا وقعت كذلك فقد أولها، قال يوسف عليه السلام: (وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا)، **أي تحققت كما رأيتها. وكما قال الخضر لموسى:** (ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا)، **فموسى شهد أشياء ولم ير الغيب الذي وراءها، فلما أخبره الخضر بذلك الغيب، فطابق الغيب عالم**

الشهادة، قال: هذا تأويله.

والقرآن الكريم أخبرنا بالغيب، فتأويل الغيب هو أن يصبح مشهودا. كما أخبرنا عما لا ندركه من عالَم الشهادة، فتأويله أن يصبح مدركا. فالتأويل في القرآن الكريم: هو مطابقة عالَم الغيب لعالَم الشهادة، ومطابقة عالَم الشهادة غير المدرك لعالَم الشهادة المدرك.

ولذلك فتأويل القرآن تأويلا تاما لا يكون إلا يوم القيامة، (فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ). فيشهد الإنسان الغيب الذي مضى والغيب الذي كذب به أو آمن، ويدرك الإنسان ما لم يكن يدركه.

والإنسان كلما اكتشف شيئا من أسرار الله في خلقه، فقد تحقق له تأويل لعلم الله سبحانه وتعالى. ويتحقق له تأويل (طبقي) لكلام الله سبحانه وتعالى عن ذلك السر. فالقرآن هو أسرار الله في عالم الغيب والشهادة. وقد أرشد الإنسان كيف يصل إلى بعض هذه الأسرار، بالنظر في الخلق، والسير في الأرض.

وهكذا يأتي تأويل القرآن الكريم شيئا فشيئا، حتى يأتي تأويله كاملا يوم الدين، حين يشهد الإنسان الغيب الذي أخبره ربه، وهو علمه، من لقائه، ووعده.



وما يعلم تأويله إلا الله:

قال تعالى: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ

الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ).

تحدثت سابقا عن مفهوم التشابه في القرآن الكريم، وضربت لذلك مثلا، فالإنسان (كنوع) هو شيء واحد متشابه، ثم إن أفراد هذا النوع بالرغم من تشابه خلقهم، إلا أن بينهم اختلافات عديدة، فهم متشابهون ولكنهم غير متماثلين.

وآيات القرآن الكريم متشابهة، فهي كلها تدلنا على علم الله سبحانه وتعالى، ولكنها غير متماثلة، فكل آية لها طابعها المميز، وخصائصها التي تنفرد بها.

وكل كلمة في القرآن الكريم هي متشابه، بمعنى أن دلالتها العامة واضحة، وهي التي تفسر بها. ولكن طبقاتها الدلالية تختلف بعضها عن بعض. فهو اختلاف تميز لا تباين، واختلاف في إطار الشبه الواحد. كاختلاف أفراد النوع الواحد (ومع اختلافهم فهم متشابهون).

وهذا التشابه الذي في الآيات، هو طبقات دلالية تأويلية، طبقة وراء طبقة، فمن أحاط علماً بالشيء استطاع تأويل الكلام الدال عليه. وكلما تدبر الناس آيات القرآن الكريم أدركوا طبقات دلالية جديدة، تشبه بعضها بعضا. ولكنهم لا يصلون إلى منتهى دلالاتها، فلا يمكنهم تأويله.

فمثلا، حديث القرآن الكريم عن الساعة. تأويل هذا الحديث هو تحققه. غير أن ثمة آيات وعلامات ذكرها القرآن الكريم بين يدي

الساعة، فكلما تحققت علامة منها فقد أتى تأويلها.

فالتأويل يردّ كل الصور المتشابهة، والطبقات الدلالية إلى الصورة الكاملة الأصلية للشيء، التي انبثقت منها الصور كلها. فهي كالأم (والأم يأتي منها أولادها، وبالرغم من اختلافهم عنها، إلا أنهم يؤولون إليها. فهم يشبهونها).

فالآيات المتشابهات لا يعلم تأويلها التام إلا الله. والناس تجاهها فريقان،

الفريق الأول: فريق في قلوبهم زيغ، يحاولون تأويل ما لم يحيطوا بعلمه، فمثلهم كمثل من يأخذ فصلا دراسيا، هذا الفصل سبعة مستويات، فإذا انتهى من المستوى الثاني يزعم أن هذا هو المستوى النهائي، أو يقيس بقية المستويات على المستوى الثاني ويدعي أنها تماثله، فهذا تأويل خاطئ.

والفريق الثاني هم الراسخون في العلم، الذين يدركون أن تأويل المتشابه سيأتي، فهم لا يقولون أن ما بلغوه من العلم هو المستوى النهائي، بل يدركون عظمة علم ربهم، فيقولون: آمنا به، وصدقنا ربنا، فكل من عنده، أي المتشابه وتأويله.

الزائغون يستخدمون التأويل الطبقي، ويعتبرونه تأويلا نهائيا. فهذا زيغ القلوب. ولذلك يدعو المؤمن ربه، كما بينت الآية التي بعدها: (رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا).

فالآيات المتشابهات هي الآيات التي لم يأت تأويلها التام، وتأويلها سيأتي حين تقتضي إرادة الله سبحانه وتعالى ذلك. والذين يحاولون

تأويلها تأويلا تاما قبل أن يأتي، كمن يحاول قطف الثمر قبل نضجه، فلا هو مستساغ للأكل، ولا هو تركه حتى ينضج. قال تعالى: (وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (٦٦) لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)، **فهم كذبوا به وهو الحق، وتكذيبهم به أنهم لم يحيطوا بعلمه. ولما يأتهم تأويله، وسيأتي التأويل حين يأتي مستقر النبأ. فمستقر النبأ هو التأويل التام النهائي له.**



آيات محكمات وأخر متشابهات:

وقد أخبرنا القرآن الكريم أن كل آياته محكمات، كما قال تعالى: (كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ). **وأخبرنا أن آياته متشابهة، كما قال:** (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ). **فالقرآن محكم متشابه.**

فلماذا قال هنا في آية آل عمران: (منه آيات محكمات وأخر متشابهات)؟

آية فصلت: (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت)، فهو يتحدث عن مرحلتين للآيات، المرحلة الأولى: الإحكام، والمرحلة الثانية: التفصيل.

فأما الإحكام فهو الشد الوثيق، والبيان الفاصل الواضح، فإحكام آيات الكتاب يبين أن الدلالة الأصلية لآيات الكتاب دلالة واضحة بينة فاصلة حاسمة قاطعة، وهي تمثل الطبقة الدلالية الأولى الأم، التي ترد إليها الدلالات المفصلة الأخرى. هذه الدلالة محكمة، تمثل أم

الكتاب. فالأم هي الأصل التي يرجع إليها الأولاد. فكل آيات الكتاب محكمة، أي أن دلالتها الأصلية واضحة فاصلة قاطعة بينة. والله قد تعبد الناس بهذا الإحكام في الآيات.

والمرحلة الثانية، هي مرحلة التفصيل، فكل آية لها دلالات مفصلة، هذه الدلالات تمثل طبقات دلالية، نابعة من الدلالة الأم. فهي تشبهها، ولكنها ليست مثلها، كما يشبه الأولاد أمهم. وتأويل الآيات مرده إلى تحقق كل الدلالات المفصلة لها، فأهل العلم يعلمون التأويل الطبقي، أما التأويل التام النهائي فلا يعلمه إلا الله.

فكلُّ آيةٍ محكمةٌ متشابهةٌ، محكمةٌ بدلالتها الأم (فهي أم الكتاب)، متشابهةٌ بدلالاتها المفصلة (ثم فصلت).

وقد بين الله سبحانه وتعالى أنه فصل آياته على علم (وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ). **فهو فصّل آياته على علم، فالمؤمنون يهتدون به، ويقولون: آمنا. وأما الزائغون فهم لا يؤمنون به، ويطلبون تأويله، كما قال المشركون:** (قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ). **فهم طلبوا تأويله، وقالوا أنه حدثنا عن البعث، ولم يتحقق البعث، فهو كذب!! فالله يقول لهم: هل ينظرون إلا تأويله؟! نعم، سيأتي تأويله ولكن حين لا ينفع الإيمان.**

فهذه الآية تبين أن تفصيل الآيات بعلم، أي: بعلمه سبحانه الذي لم يحطْ به خلقه. وبذلك تشابهت آياته، وسيأتي تأويلها. وتفصيل

الآيات في القرآن الكريم يرتبط بأهل العلم، كقوله: (كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)، **وقوله:** (كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)، **وقوله:** (كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ). **فأهل العلم هم من يتدبرون في الآيات المفصلة، ويبينون للناس ما تحقق من تأويله وما لم يتحقق، ويقولون: كل من عند ربنا، أي: ما تحقق بعضه، وما لم يتحقق منه شيء.**



وقوله: (كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)، **فهي فصلت قرآنا عربيا، كما قال: (بلسان عربي مبين)، فكل آية ذات طبقات دلالية، نابعة من إمكانية اللسان العربي، وقدرته التوليدية دلاليا. ومع أن هذا اللسان العربي يستخدمه البشر، ويبرعون في استخدامه، فإن استخدامهم يظل محدود الدلالات، وبيانه مرتبط بعلم قائله. ولكن القرآن الكريم هذا الذي جاء بلسان عربي، قد اختلف عن كلام الناس. مع أن الألفاظ واحدة. ولكن الفرق بين كلام الله وكلام البشر كالفرق بين خلق الله وصناعة البشر. الله يخلق مخلوقا حيا، فيصوره أحسن تصوير، ويبدعه أحسن إبداع. وماذا يصنع البشر؟! خذ وردة مخلوقة ووردة مصنوعة لترى الفرق.**

كذلك القرآن الكريم، فالله يبين أنه فصله بهذا اللسان، فمنحه الحياة، كما منح مخلوقاته الحياة، فأصبح (متشابها مثاني)، تتشابه آياته ولا تتماثل، تتشابه الطبقات الدلالية للكلمة ولا تتماثل.

وقد بيّن الله أنه اختار اللسان العربي، فأنزل به كتابه، فأحكم آياته به: (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا)، **أي: محكما بلسان عربي، وفصل آياته به فجعلها متشابهة:** (كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ).

والحروف المقطعة في أوائل السورة، هي تقرير التحدي وإعجاز العرب الذين نزل بلسانهم، فهو يقول لهم: هذا لسانكم العربي، وقد أنزلت القرآن به، وأنتم تتكلمون هذا اللسان، فهو يتألف من هذه الحروف التي تعرفونها: ألف، لام، ميم، ص.... فلم لا تقدرون على الإتيان بمثله؟! فليس أمامكم إلا التصديق بأنه غير مفترى، وأنه تنزيل من رب العالمين.

فأنت حين تعلم طفلا القراءة والكتابة تقول له: (كوب)، كاف واو باء. ليتعلم أن اللفظ مؤلف من هذه الحروف. والله سبحانه وتعالى يخاطب العرب، فيقول لهم: ألف لام ميم، ذلك الكتاب... فكيف تقولون أنه غير عربي؟ وكيف تعجزون عن قول مثله وقد ثبت أنه عربي؟!



إذن فالتأويل الطبقي هو سبيل الإنسان لإدراك إعجاز القرآن، وأنه ليس بمقدوره أن يأتي بمثله، فهذا عجز المعارضة، فيُسَلّم بعجزه، فيتحقق بأنه تنزيل من عالم الغيب والشهادة، فيقع التحدي.

وتحقُّق هذا، كتحقق التحدي بأن يخلق الناس شيئا، فإن لم يستطع مخلوق أن يخلق، أو أن يُحيي، فإنه يلزمه التسليم بأن الخلق

من شأن الخالق المحيي. فتتحقق شهادة الله بوحدانيته.

فالعجز عن المعارضة، مع وجود دوافعها، والرغبة فيها، يحقق التحدي.



الإدراك الطبقي والتأويل الطبقي:

إذن بـ(الإدراك الطبقي) لعلم الله، و(التأويل الطبقي) لكلام الله، يتحقق التحدي والإعجاز، وهو ما يمكن أن يدركه البشر، فكلما أدركوا شيئا من طبقات العلم تحقق التحدي وتجدد الإعجاز، فتجدد الإعجاز بالنسبة لإدراك البشر.

والله سبحانه وتعالى، وعد بأنه سيري خلقه من آياته في الآفاق وفي أنفسهم، حتى يتبين لهم أنه الحق. فهم يركبون العلم طبقا عن طبق، وكل مرة يدركون فيها شيئا منه يتبين لهم أنه الحق.

قال تعالى: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٢) سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ).

فهذه البينة (علم الله في كتابه)، وتتحقق بالنظر إلى آيات الله في الآفاق وفي الأنفس. فقد تكفل الله بأنهم سيريهم هذه الآيات، حتى (يتبين لهم أنه الحق)، أي يتبين للناس جميعا أن القرآن حق، فالله شهد به، والله لا يشهد إلا بالحق. فهو شهيد يُظهر المشهود به (القرآن)، وبينته: علم الله الذي فيه، ويحقق هذه البينة بـ(آياته في الآفاق وفي أنفسهم). فإذا صدق التحدي بما أدركه الإنسان من علم

الله ﷻ في كتابه، فإنه يصدق بما لم يدركه من تأويله، من باب أولى.

إذن فالتأكد من هذه البينة مرتبط بما يمكن الإنسان أن يدركه من علم الله. أي: بالتأويل الطبقي لا النهائي.

والله أمر خلقه بأمرين ليتبينوا الحق، الأول: النظر في آيات الآفاق والأنفس، كما في الآية، وآيات كثر، كقوله: (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)، **وقوله:** (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا)... **فالقرآن الكريم مليء بالآيات التي تحث الناس على النظر في آيات الآفاق والأنفس، وإبصارها، والسير في الأرض. فهذا يحقق التأويل الطبقي للإنسان.**

والأمر الثاني: تدبر آيات الكتاب،

قال تعالى: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ)،

وقال: (أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ)،

وقال: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ).

وهذا يحقق الدلالة الطبقية لبيان القرآن الكريم.

❖ ❖

إذاً تقرر الفرق بين التأويل الطبقي والتأويل التام، والإدراك الطبقي والإدراك التام. وتقرر أن علم الإنسان طبقي لا نهائي، فهو لا يعلم كل شيء عن الشيء، بل يعلم منه طبقات لا تبلغ منتهاه. وتبين أن الإنسان كلما تقدم به العلم أدرك طبقة جديدة من العلم كان يجهلها، وفي ضوء ما يدرك تتعدل أحكامه، وتقترب شهادته من الصدق والعدل. ولكنها تظل محكومة بالمستوى العلمي الذي وصل

إليه، أي بالطبقة التي أدركها.

وعلم الله – كما ذكرت –نهائي، فما يقوله في كتابه فهو منتهى العلم، الذي ليس وراءه علم، وحين يتحدث عن آية في الآفاق أو في الأنفس، فإنه يتحدث عنها بعلم نهائي لا طبقي، أي يتحدث عنها وهو يعلم كل شيء عنها.

وبذلك فحين يدرك الإنسان علم الله، فهو إنما يدركه إدراكا طبقيا قاصرا. والإدراك الطبقي لا يعني أن الإنسان وصل إلى منتهى العلم، بل هذا أقصى ما بلغه علمه. ومن ثم فلا توجد حقائق علمية نهائية يقينية يصل إليها الإنسان في شيء من الأشياء، إنما هي طبقات علمية تقترب من اليقين، بقدر التزام البحث العلمي بمعايير الصدق والعدل.

وأقصد باقترابها من اليقين، أن الأشياء جعلها الله طبقية متشابهة، فحين يصل الإنسان إلى طبقة ما في الشيء، ثم يصل إلى طبقة ثانية، ثم ثالثة، فإن الطبقات تتشابه ولا تتماثل، فكلما ازداد عدد الطبقات التي يَرْكَبُها (يكتشفها)، ضيّق ثغرات الشك، واقترب من اليقين، واقترب من الإدراك التام، الذي لا يعلم منتهاه إلا الله سبحانه وتعالى. وهذا ما يساعد الإنسان على الإفادة من سنن الخلق، فهي مطردة، تتشابه ولا تتماثل.

وكذلك آياته في كتابه، فهو يؤولها تأويلا طبقيا، فالكتاب (متشابه مثاني)، فكل ثنية (طبقة) فيه تشبه الطبقة السابقة، ولا يصل إلى التأويل التام. بل هذا هو ما يدركه.

ولذلك فالله جعل كتابه محكما ومتشابها، فالمحكم يُمَكّن الإنسان من تأسيس قاعدة تأويلية عريضة، يتعامل بها مع الغيب، (والغيب هو الله سبحانه وتعالى، وما يريده منه)، فيصل وصولا يقينيا إلى مراد الله: الله يريد منا الإيمان به، وبالغيب، وباليوم الآخر، ويريد منا عبادته... الخ، وخلوص الإنسان متعلق بهذا المحكم. أما المتشابه وهو الطبقة المفصلة من آيات الكتاب فيبلغها الراسخون في العلم، وكلما رسخ علمهم، ورسخ علم البشر في إدراك علم الله في خلقه، أذن الله بانكشاف طبقة تأويلية جديدة من كلامه. تشبه ما سبقها ولا تختلف عنها، ولكنها لا تماثلها.

فالتشابه إذن سنة الله في خلقه وفي كلامه، سبحانه وتعالى.

وحين يعتقد بعض الناس أن ثمة معارضة بين ما أدركوه من علم الله، وما أوّلوه من كلامه، فإن ذلك يعطينا شهادة صادقة بأن معتقِد هذا الكلام على خطأ في إدراكه (لعلم الله)، أو في تأويله (لكلام الله).

فمن كان على صواب في إدراكه لعلم الله أو تأويله لكلامه، فلن يجد بينهما تعارضا، ولا اختلافا. حتى ولو كان إدراكه أو تأويله قاصرا، فلن يجد التعارض والاختلاف، إذ خَلْق الله ككلامه متشابه.

وبهذا يتبين لنا أن سنة (الطبقية)، قائمة على التشابه، لا التماثل، وهي متحققة في خلق الله، كما هي ماثلة في كلامه. وكونها قائمة على التشابه تبين ألا اختلاف بين طبقة وأخرى، وكونها غير متماثلة تعني أن كل طبقة تمنح الإنسان إدراكا أو

تأويلا جديدا، ولكنه ينسجم مع إدراكه أو تأويله للطبقة السابقة. وبهذا تطرد سنن الله في خلقه، وفي كلماته، دون تبديل فيهما. (لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ)، (لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ).

❖ ❖



(د) كيف نتأكد من صدق البينة؟

وأما التأكد من صدق هذه البينة فله ثلاثة معايير:

المعيار الأول: المطابقة،

أي مطابقة ما أمكن الإنسان إدراكه من علم الله (التأويل الطبقي)، مع ما أمكنه تأويله من كلام الله. ككلامه عن آيات الآفاق والأنفس،

قال تعالى: (إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ).

فآيات الخلق، تُتلَى في آيات الكتاب. فهي بينة أقامها الله على شهادته بصدق الكتاب. والحديث عن آيات الآفاق والأنفس كثير في القرآن الكريم.

فإذا طابق هذا الحديثُ الآياتِ نفسها فهو دليل على صدق شهادة الله بأن القرآن حق. وإن اختلف فهو دليل على أنه غير حق، وأنه مفترى من عند غير الله. قال تعالى: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا). **إذن فالمعيار واضح؛ لإثبات صدق القرآن أو كذبه. فالصانع الذي يصنع جهازا، ثم يصف صنعته في كتاب، فإنه يصفها بعلم، فينطبق حديثُه على مصنوعه، فلو اختلف وصفه لمصنوعه لدل على أنه لم يصنعه، أو دل على أن ذلك الوصف ليس وصفه. وهذا مع محدودية علم البشر، قال تعالى:**

(أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ).

ومن ثم فمن ادعى أن القرآن مفترى فعليه أن يثبت أنه يخالف علمَ الله.



المعيار الثاني: انسجام الدلالات

والمعيار الثاني لتحقق البينة: عدم تعارض الدلالات في تحقيق شهادة واحدة.

فلا بد أن تتفق الآيتان (الكتاب والخلق) في دلالتهما على وحدانية الله. فلو اختلفت دلالتهما لسقطت البينة وبطلت الشهادة. فآيات الآفاق والأنفس بينة ناطقة على أنه ما من إله إلا إله واحد، وآيات القرآن الكريم بينة على ذلك، والقرآن الكريم لا يدعو إلا إلى إله واحد، فهما من مشكاة واحدة، ولو اختلفا لاختلفت دلالتهما.

فالله شهد بوحدانيته، وأقام عليها بينات، وهذه البينات لا بد أن تتظافر دلالاتها على الشهادة، فإن اختلفت سقطت البينات كلها. والقرآن الكريم بينة على شهادة الوحدانية، وفي الوقت نفسه هو مشهود به، وبينته علم الله الذي فيه يصف فيه خلقه. والتحقق من صدق هذه البينة يكون بمطابقتها مع آيات الخلق، واتفاق دلالتهما على شهادة واحدة.



المعيار الثالث: التفرد البياني

والمعيار الثالث لتحقق البينة: التفرد البياني. فكما أن العلم الذي تضمنه القرآن الكريم ليس بمقدور مخلوق أن يأتي بمثله، فكذلك البيان الذي صيغ به هذا العلم ليس بمقدور مخلوق أن يأتي بمثله. والتفرد هنا ينطبق على الكلمة والخطاب. فأسلوب القرآن الكريم فريد، لا يشبهه أسلوب آخر.

والناظر لا يحتاج أبعد من مقارنة أسلوب القرآن الكريم بأسلوب الحديث النبوي، ليجد بونا شاسعا بين أسلوبين، وخصائصهما، وسمات صاحب كل منهما. وكلاهما جاء بهما رجل واحد، فأما أحدهما فنسبه إلى نفسه وأما الآخر فنسبه إلى ربه. ولو كان كاذبا لما أمكنه صناعة أسلوبين بيانيين مختلفين، ولو فعل ذلك متكلفا لما اطرد معه الأمر في حديث ربه كله، وفي حديثه كله.

وهناك أبحاث عديدة في الافتراق الأسلوبي بين القرآن الكريم والحديث الشريف، يمكن الإفادة منها، ولا زال أمام محللي الخطاب مجال واسع للبحث والدرس.

□

ثانيا: إثبات الشهادة بالقَصّ:

القرآن الكريم هو القصص الحق: (إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ)، **الذي يقصه الحق سبحانه وتعالى:** (إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ). **وتأخذ القصص في القرآن الكريم حيزا كبيرا، وقد بينت أن القَصّ هو إنباء بما وقع وإخبار بما سيقع (وما سيقع بالنسبة للإنسان، أما بالنسبة لله سبحانه فكله قد وقع وتحقق)، فالله يقص علينا من أنباء الغيب التي مضت، كما يقص علينا من أخبار الغيب التي ستأتي (والله قد شهدها كلها سبحانه، فهو يقص علينا ما شهد، عالم الغيب والشهادة).**

وقصص أنباء الغيب هي طريق من طرق إثبات شهادته سبحانه بأن القرآن حق، وأنه لم يفتره محمد (صلى الله عليه وسلم)، فلو كان مفترى فكيف يقص هذه القصص ولم يكن شاهدا، فسيكون حديثه ظنونا وتخمينا، وسيفضحه أهل العلم الذين هم شهداء يشهدون بصدق ما يقوله أو كذبه. ولكن حديث القرآن الكريم جاء في غاية الدقة والموثوقية،

قال تعالى: (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ).

وقال تعالى: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ)،

وقال: (نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ).

وكما أمر الله الناس أن يسيروا في الأرض فينظروا كيف بدأ الخلق، فقد أمرهم بالسير في الأرض والنظر في سننه في الأمم

السابقة، وفي هذا النظر موعظة لهم، وفيه تثبيت لقصته، حيث يسيرون فيجدون صدق ما أنبأ به، وقد كان غيبا، فلا يجدون إلا التسليم بصدق شهادته.

فالقرآن الكريم معجز بقصص التاريخ التي يرويها، وهذه القصص بينة على أنه من عند الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ).

وقال تعالى: (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ)،

وقال: (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا)،

وقال: (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ)،

وقال: (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)، (مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ).

❖ ❖

كما أن قصص القرآن الكريم جاءت ببيان ما اختلف به أهل الكتاب من أنباء، وحقائق، فبيّن الزائف من الصحيح، وكشف الحق

من الباطل، كشف لهم ما اختلفوا فيه، وأظهر لهم ما أخفوه. فشهد القرآن بتحريف أهل الكتاب لكتبهم، فلم تعد من عند الله، فكلمة الله لا تُحرَّف، ولا تُبدَّل، ولا يُفترَى فيها الكذب، فشهادة الله هي الحق، وكلمته هي الصدق والعدل التي لا تتبدل.

قال تعالى: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)،

وقال: (كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ)،

وقال: (هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ).

وقال: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ).

وقال: (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ).

وقال: (أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ).

❖ ❖

قال الفخر الرازي: (هذه القصص دالة على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام؛ لأنه عليه السلام كان أميا وما طالع كتابا ولا تلمذ أستاذا، فإذا ذكر هذه القصص على الوجه من غير تحريف ولا خطأ دل ذلك على أنه إنما عرفها بالوحي من الله، وذلك يدل على صحة نبوته). وهو كلام قيم. ثم قال: (ولقائل أن يقول: الإخبار عن الغيوب الماضية لا يدل على المعجز لاحتمال أن يقال إن إبليس شاهد هذه الوقائع فألقاها إليه، أما الإخبار عن الغيوب المستقبلة فإنه معجز لأن علم الغيب ليس إلا الله سبحانه وتعالى).

وهذا القول غير مسلَّم به، فإبليس لا يعلم كل ما حدث، هناك أنباء يعلمها، ويمكن أن يصدق عليها مثل هذا القول، ولكن غاية ما يفعله إبليس هو أنباء كأنباء ما بأيدينا من (الكتاب المقدس)، [وهي الأسفار التي يزعم النصارى اليوم أنها التوراة والإنجيل، وما هي بالتوراة ولا الإنجيل]، فهذه القصص المشوهة هي ما يقصه إبليس على البشر، وقد جعلت من تلك الأسفار ملاحم تاريخية [بغض النظر عن مدى صدقها]، تبحث في تفاصيل مملة، وتعكس قيما منحرفة، ووراء ذلك أصبحت خالية من الهداية والإرشاد، وليس كذلك كتاب الله الذي يهدي لما هو أقوم (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ).

كما أن قصص القرآن الكريم تفضح إبليس، وخبثه، وتربصه ببني آدم، ومكره بأبيهم آدم... الخ. كما تفضح أولياءه، وتبين

خذلانهم. فقارئ قصص القرآن الكريم ستتحقق لديه عداوته لإبليس، وكراهيته له، ومقته لأوليائه، واستخفافه بهم. وفي المقابل تتحقق لديه عظمة ربه، ووحدانيته، والإيمان به، ورجاؤه. فمن الكاتب إذن؟ وهل سيكون أدنى احتمال لغيره؟!

ثم إن القصص ليست مجرد أحداث تروى، بل هي سرد يرتبط بأهدافها والقيم التي تجسدها، والمقاصد التي ترمي إليها، وماذا عسى إبليس أن يجسد من قيم؟ سيجسد قيم الكفر والشر، أما قصص القرآن الكريم فتجسد قيم الخير، وتحقق الإيمان بالله الواحد، وتبني الفضيلة والتقوى في النفوس، وتروي حلقات الهدى والضلال في تاريخ البشرية.

قال تعالى: (وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ)، وقال: (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ).

ثم إن القصص في القرآن الكريم تتحدث عن بواطن النفوس، حديثا بعلم، وليس بظن، وهذا ما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى.

كما أن سرد هذه القصص، واختيار مشاهدها، واختلافها باختلاف السياقات، والتعيين والإبهام، والنشر والطي، والذكر والحذف، والتقديم والتأخير، والتفصيل والإجمال، والطول والقصر، والانتقال والتخلص، والحجاج والتوجيه، وتنوع الأساليب، وتنويع المشاهد [وليس تكرارها]، وسرد المواقف، وسرد الزمان، ووصف المكان، وحديث الشخصيات، وتجسيد النماذج، وحبكة القصة، وتتابع الأحداث، وبيان الطبيعة البشرية، والانفعالات النفسية، والمحاورات القولية، والغوص في أعماق النفوس، والدقة التاريخية، واستنباط

العبر، واستخلاص الحكم، وعرض القيم، والربط بالمقاصد، ووصلها بآيات الآفاق والأنفس، وتربية العواطف، وتقويم الانفعالات... - تنبئ أن ثمة إلها واحدا يقص هذه القصص، فتغدو قصصا نابضة بالحياة، متدفقة بالحكمة والموعظة، ليست سردا تاريخيا، بل هي قطعة تؤدي وظيفتها في كتاب هداية وإرشاد.

وهذا ما لا يمكن معه قطّ طرح مثل هذا الاحتمال الذي أشار إليه الإمام الرازي. وسيطول الحديث لو تتبعت السرد القصصي في القرآن الكريم، واستحالة أن يقص هذا القص إلا الله سبحانه وتعالى.



بينة القرآن الكريم، هي علم الله الذي ضمنه فيه، ومن علمه سبحانه وتعالى: ما قصه علينا من أنباء سابقة، والله يقصها بعلم. والبحث في الآثار السابقة، وفي تاريخ الأمم البائدة يساعد على كشف علم الله الذي قصه علينا في كتابه. ولكن هذا البحث فيه مخاطر جمة، يخضع لأهواء الباحثين كثيرا، وتنقصه الدقة العلمية، وتعوزه الأدلة. فإن ظهر من ذلك شيء ظهورا بينا، واتفق عليه الباحثون، وخلا من الأدلة المعارضة، فيمكن الاستئناس به في تفسير أنباء السابقين. دون جزم ويقين، بل أقصى ما يدل عليه هو العلم الراجح.

بخلاف (آيات الآفاق والأنفس)، التي يمكن الإنسان أن يؤولها، حين يراها، ويشاهدها، فهو يدل على اليقين، ويوصل إليه: ﴿سَنُرِيهِمْ

آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)، **وقال**: (سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا). **وقد جعل الله الأرض وآياتها، والسماء وآياتها، جعلها آيات للموقنين.**

قال تعالى: (يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ)،

وقال: (إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)،

وقال: (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ).

أما أنباء السابقين فجعلها تذكرة وعبرة وموعظة وتفكرا؛ (ولم: يقل: لعلكم توقنون). فاليقين فيها لا يتحقق لدينا بطريق المشاهدة، فذلك غيب وقد مضى، ولكنه يتحقق عن طريق الوحي.

قال تعالى: (فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)،

وقال: (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ).

❖ ❖

فكل الحديث التاريخي إنما هو حديث في باب الظن، وقد ينخفض هذا الظن حتى يصل إلى الشك، وقد يرتفع هذا الظن فيبلغ العلم الراجح. واليقين ما جاء في كتاب الله سبحانه وتعالى.

فما أنبأنا الله في كتابه هو يقين، وما يتوصل إليه البحث التاريخي وعلوم الآثار هو علم راجح، فنحن نحاكم العلم الراجح إلى اليقين، لا العكس. وفي الوقت نفسه نستفيد من العلم الراجح في فهم وإدراك الدلالات التاريخية الدقيقة في القرآن الكريم.

أأنتم أعلم أم الله؟! الله عالم الغيب والشهادة، وهو من عَلِم كل حدث وقع في تاريخ البشرية، علمه علما مفصلا، وقد أنبأنا ببعض

أنباء القرون السابقة، والأمم الخالية، نبأ بالحق، وشهادة صدق وعدل. فكيف يأتي أحد لا يعلم ما قالت له أمه ساعة مولده، ولا يعلم كم وُلِدَ من الناس في تلك اللحظة، ولا يعلم كم عدد الأنفاس التي تنفسها في يوم واحد، وينسى ما الذي أكله قبل شهر ونصف، ويجهل كم دقيقة نام خلال عام... يأتي ويصحح أو يخطئ شهادة الله، وهو عالم الغيب والشهادة؟!!

لا يحاكَم القرآن وهو الشهادة الصادقة العادلة، إلى كتب قد حرّفها الناس وزوروها، ولا يحاكم إلى آثار وجدناها يكتب مؤلفوها ما اطلعوا عليه، أو ما شاءوا أن يكتبوه مما اطلعوا عليه. فذلك ظلم وزور.

من أراد محاكمة القرآن الكريم إلى تلك الكتب، واعتبارها معيارا لتصحيح القرآن أو تخطئته، فيلزمه أمران، الأمر الأول: أن يثبت أن تلك الكتب هي كلمة الله التي لم تتبدل ولم تحرف. والأمر الثاني: أن يثبت أن القرآن الكريم ليس كلمة الله. فإذا فعل ذلك آمنا بما يقول، وإلا فهو شاهد زور، (سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ).



ثالثاً: إثبات الشهادة بالقسم:

تعددت أقسام الله سبحانه على أن كتابه حق، فشملت الأقسام: أن كتابه نزل من عنده، ومن نزل به، ومن نزل عليه، ومتى نزل.

أقسم الله سبحانه وتعالى على أن كتابه حق، وأنه نزل من عنده

سبحانه وتعالى، فقال:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ).

كما أقسم بأنه أنزله من عنده رسولٌ كريم من السماء، وهو جبريل عليه السلام، وهو ذو صفات تجعله قادرا على حمل الرسالة من السماء إلى الأرض:

(فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ).

كما أقسم بأنه تلقاه رسولٌ كريم من البشر، وأنه نزل على قلبه، ولم يفتره، فقال:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ).

كما أقسم بليلة نزوله العظيمة، فقال:

(وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ).

كما أقسم على كونه نزل بلسان عربي، فقال:

(وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ).

(٢) شهادة الملائكة بما أنزل الله:

قال تعالى: (لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ).

قال ابن كثير: (أي: بصدق ما جاءك وأوحي إليك وأنزل عليك). وقال البقاعي: ("والملائكة يشهدون" بذلك؛ لأنهم كانوا حضوراً لإنزاله وأمناء على من كان منهم على يده ليبلغه). وقال ابن عاشور: (وعطف شهادة الملائكة على شهادة الله؛ لزيادة تقرير هذه الشهادة بتعدد الشهود، ولأن شهادة الله مجاز في العلم وشهادة الملائكة حقيقة).

لقد جعل الله بينته على شهادته بصدق القرآن الكريم: علمه، فعلمه هو البينة. وأما شهادته بصدق رسوله فقد جعل بينته القرآن الكريم نفسه، وبينات أخرى منها علم أهل الكتاب. (سأذكرها لاحقاً).

والمتدبر للقرآن الكريم يجد أنه جعل شهادة (أهل الكتاب) بينة على شهادته بصدق رسوله، فصفاته وخبره عندهم في كتبهم التي يؤمنون بها، ومن ثم فكان علمهم بذلك بينة على صدق رسالته. أما القرآن الكريم فلم يجعل أحدا شاهدا بأنه حق إلا هو وملائكته. وقد جعل بينته على شهادته: علمه.

فكيف تشهد الملائكة بأن القرآن حق من عند الله سبحانه وتعالى؟

أقرب الأقوال ما ذكره البقاعي، أنهم شهدوا؛ لأنهم كانوا

حضورا (شهودا) حين إنزاله، وأمناء على من أنزله منهم. فهم يشهدون بما شهدوا، ثم إن إبلاغهم به إلى الرسول صلى الله عليه وسلم هو الجزء المتمم لشهادتهم، فهم الذين ينزلون به من السماء، ويحفظونه، ويحفظون الرسول حتى يبلغه، كما قال تعالى:

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا)،

وقال: (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ).

فشهادتهم بأن القرآن حق، هي إظهارهم وبيانهم لهذه الشهادة، بشهودهم في السماء، وتبليغهم الوحي إلى الأرض. قال تعالى: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ).

فهم شهداء بأن القرآن حق، نزل من عند الله سبحانه وتعالى. وهم المعنيون بقوله تعالى: (فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا).



□

(٣) علم أهل الكتاب:

وقد جعل الله علم أهل الكتاب بأن القرآن حق، دليل بين على شهادته بأنه نزل من عنده. وهو علمهم القائم على وحي الله إلى أنبيائهم، فعلمهم الصادق الصحيح من علم الله.

قال تعالى: (أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ).

وقال: (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ).

وقال: (وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥) وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا (١٠٦) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا).

وقال: (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ).



قال تعالى: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ).

فالآية تتحدث عن شهادة من أسلم من أتباع التوراة (من بني إسرائيل). وقد تحدثت عنها سابقا.

وقوله (على مثله)، الضمير كما قال الزمخشري وغيره من المفسرين يعود إلى القرآن، والمعنى: شهد على التوراة (فهي مثل القرآن في كونها من عند الله). وقال ابن عطية: (الضمير عائد على قول محمد عليه السلام في القرآن: إنه من عند الله)، وكلاهما بمعنى واحد. فشهادة شاهد بني إسرائيل هو بينة تصدق الشهادة بأن الرسول حق، وأن القرآن حق.

وقوله تعالى: (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ).

فالآية تتحدث عمن أسلم من النصارى، وهم أتباع الإنجيل. فقوله (على بينة) وهي الوحي: الإنجيل (من ربه)، (ويتلوه) أي يتبعه: يتبع الإنجيل، (شاهد) وهو القرآن فهو الذي يتبع الإنجيل، (منه) أي: من ربه، فالبينة منه، والشاهد كذلك منه، (ومن قبله) أي: من قبل الإنجيل، (كتاب موسى).

ومعنى الآية: أولئك (النصارى) آمنوا به، وهم قد جمعوا البينات والشهادات كلها [الإنجيل والتوراة، وشهد عليهن القرآن]، فكيف بكم أنتم تكفرون؟! إلى أي بينة تستندون؟! فمن يكفر به منكم فالنار موعده.

(٤) جدال شهود الباطل:

هذه شهادة الله سبحانه وتعالى، بأن القرآن نزل من عنده، وهي شهادة الحق. وقد جادل المكذبون بالباطل ليدحضوا به الحق، فشهدوا بأن القرآن ليس كلام الله، وأنه مفترى. وقد سجل القرآن الكريم شهاداتهم، وجادلهم فيها.

فأول الأمر حاولوا إضفاء الوصف البشري على القرآن، فقالوا: شعر شاعر، وسجع كاهن، وسحر ساحر، وأضغاث أحلام.. ثم قالوا: بل افتراه، وقالوا: إن هذا إلا قول البشر، وقالوا: بل علمه بشر، وقالوا: بل نقل من كتب سابقة، وقالوا: بل هو أساطير الأولين اكتتبها، وقالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء...

وهذا الشهادات القديمة، هي نفسها تتكرر في ثياب جديدة، فنجد من يقول: بأن القرآن ليس من عند الله، وأنه من تأليف محمد (صلى الله عليه وسلم)، وأنه كان فنانا ومبدعا في تأليفه، وأن نبوته نابعة من الخيال الجامح، والذكاء المتوقد، وأن القرآن منتج ثقافي بشري. وبعضهم يقول أنه تأثير ثقافات أخرى، أو أنه مأخوذ من التوراة والإنجيل، وأنه خضع للتطور الثقافي، وأنه تأثر بشعر أمية بن أبي الصلت وغيره ممن تدين من العرب...

وهناك عديد من الباحثين المعاصرين الذين تتبعوا جدال القرآن الكريم ورده على من طعن في صدقه. وهي كتابات قيمة، يمكن الرجوع إليها والإفادة منها، وخصوصاً مع تجدد الطعون، فهي الطعون القديمة في ثياب جديدة. وهذه الطعون هدفها دحض الحق

الذي شهد به الله سبحانه وتعالى.

❖ ❖

وجدال القرآن الكريم لهذه الشهادات أخذ ثلاثة مسارات، المسار الأول: إثبات شهادة الحق. والمسار الثاني: تزييف شهادة الباطل. والمسار الثالث: مجاراة شهود الباطل.

المسار الأول: إثبات شهادة الحق:

هذا ما تكلمت عنه آنفا. وهو إثبات شهادة الله بأن القرآن نزل من عنده، فقد شهد بذلك وشهدت ملائكته، وصدق ذلك علم أهل الكتاب.

المسار الثاني: بيان زيف شهادة الباطل:

قال تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٥) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا)،

فهذه شهادة ظالمة، وهم شهود زور.

ورد الله عليهم بأن من أنزله هو الذي يعلم السر في السماوات والأرض، وقد ضمن كتابه علمه، فهو أنزله بعلمه. فلو اختلفت آيات الكتاب عن آيات الله في الآفاق والأنفس (وهو ما يمكنهم أن يدركوه) فقد افتراه بشر، ولم ينزله من يعلم السر في السماوات والأرض.

وقد سجل شهاداتهم، ودحضها، في سور كثيرة، ومن ذلك سورة

السجدة:

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ)...

فقد رد عليهم، ببيان أن من أنزله هو الواحد الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما، ويدبر الأمر، وهو الذي خلق الإنسان. ثم بين أن تكذيبهم به، إنما هو لإنكار اليوم الآخر، والتمتع بالحياة الدنيا، فهم يشعرون أنْ لو آمنوا به فإنه يحد من لهاثهم وسعارهم الدنيوي (وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ). **ثم تحدث عن عالم الغيب، الذي يعلمه هو سبحانه وتعالى، وأنه حجة بينة، ثم بين أن هذا الكتاب ليس بأول كتاب ينزل على البشر، بل سبقه كتاب موسى. ... فالسورة تمثل جدالا بالغا، يقذف الله الحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق.**



وقال: (وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (١٠٣) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ).

قوله (بدلنا آية مكان آية)، فسره ابن عباس، فقال: «كان إذا نزلت آية فيها شدة ثم نزلت آية ألين منها يقول كفار قريش: والله

ما محمد إلا يسخر بأصحابه، اليوم يأمر بأمر وغدا ينهى عنه، وأنه لا يقول هذه الأشياء إلا من عند نفسه».

فهم قالوا بأن محمدا (صلى الله عليه وسلم) مفتر، وأنه يبدل الآيات، والله يقول بأنهم يقولون بلا علم، فالله أعلم بما ينزل، وهو أعلم بما يريد، فآياته متشابهة لا اختلاف فيها، ولكن أنى لأعمى أن يبصر نور الشمس؟ أفيصح أن ينكره إذن؟!

وقالوا أنما يعلمه بشر أعجمي!! فكيف يستقيم ذلك، والقرآن لسان عربي مبين؟!

فشهادتهم ليست إلا افتراء للكذب، وهم ليسوا إلا كاذبين.

❖ ❖

وحين قال اليهود أن محمدا افتراه، وأنه لم ينزل الله على بشر من شيء، رد الله عليهم بأنهم يؤمنون بالتوراة التي أنزلها الله على موسى!!

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ).

❖ ❖

وزعموا أنه أساطير الأولين، وأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) نقلها من مصادر قديمة، متأثرا بما فيها: (يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)، **وقال:** (وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً

وَأَصِيلًا). **وكيف تكون أساطير الأولين، والرسول صلى الله عليه وسلم ما كان يقرأ ولا يكتب؟!** (وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ).



وهكذا تجد الضلال في شهادة المبطلين، شهادة زور دون أدلة.



المسار الثالث: مجاراة شهود الباطل.

طالما زعموا أن القرآن تأليف بشر، وهم بشر، ومحمد بشر مثلهم. فالمسألة هينة، عليهم أن يؤلفوا قرآنا (كما ألف محمد، بزعمهم). فإذا كان محمد افتراه وهو بشر فإن البشر الآخرين يستطيعون أن يأتوا بمثله طالما أنه تأليف بشر، فبماذا سيكون محمد أفضل منهم؟! فإن أتوا بمثله فقد ثبتت حجتهم، وإن عجزوا فقد دحضت حجتهم.



وفي البدء كان التحدي لهم بأن يأتوا بمثل هذا القرآن:

(أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ).

فنزل القرآن الكريم في مستوى المجاراة، حيث عجزوا عن الإتيان بمثله، حسنا فليأتوا بعشر سور مثله مفتريات:

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ

مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ).

فالتحدي واضح، من زعم أنه مفترى فليأت بمثله، فإن عجزوا وسيعجزون، فاعلموا أنما أنزل بعلم الله، أي: متضمنا البينة على صدقه، فيكون القرآن بينة على شهادة الله بأن القرآن حق.

فلما عجزوا عن ذلك نزل في مستوى المجاراة، وقال: فليأتوا بسورة واحدة فقط من مثله:

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)،

فهم كذبوا به عن جهل لا عن علم، والله أنزله بعلمه، وهم لم يحيطوا بعلمه، ولم يصلوا إلى تأويله، أي مطابقة آيات الكتاب بآيات الخلق.

وهذه المجاراة والتدرج فيها هو من تمام إنصاف الخصم، فلو ثمة مصارع قوي قد فرض هيبته وسيطرته، وجاء شخص يعارضه، فإن المصارع القوي لا يستخف بخصمه، وإن كان يعلم أنه أضعف منه، فيفترض أنه يكافئه وأنه ند له، ومن ثم يبدأ مجاراته من مستواه ثم يتنزل كلما أثبت عجزه.

والله سبحانه وتعالى فعل كذلك في مجاراة من كذب بكتابه، كما فعل كذلك في مجاراة من كذب بألوهيته، فقال:

(أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ)، (أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ).

فلما لم يجرؤ أحد منهم على قول ذلك، وهو أنه خالق

السماوات والأرض، تنزل في التحدي، فقال لهم:

(أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ)،

ثم نزل في تحديه، فقال لهم:

(إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ)،

وبعد أن أقام التحدي وأبان عجزهم قال لهم:

(وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ).

❖ ❖

وهو في كل ذلك يطلب منهم أن يدعوا شهداءهم أيضا، قال تعالى:

(وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ).

أي: فأتوا بسورة من مثله فيها علم الله الذي هو بينة على شهادته. وادعوا شهداءكم من دون الله.

والله سبحانه وتعالى لم يجعل شهيدا بأن القرآن حق إلا هو، وملائكته، فمن ذا الذي سيشهد؟ فمن آمن بالله فإنه سيشهد بما شهد به. ولذلك حين قال المبطلون: (لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ)، **قال الله لهم:** (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ). **فجعل نفسه شهيدا كافيا، (يعلم ما في السماوات والأرض)، وقال: أولم يكفهم إنزال الكتاب**

وبينته فيه.

فالشهداء بأن القرآن حق، هم: الله والملائكة. فمن الذي يشهد بأنه ليس بحق؟! فإن من شهد بأن شيئا حق، فإن شهادته تعني أن نقيضه باطل، فلو شهد الشهداء بسورة يأتون بها بأنها حق، فإن شهادتهم تعني أن القرآن ليس بحق. وهيهات، فهم لن يفعلوا.

إذن فالتحدي للممترين بالقرآن، كان بأمرين:

الأول: معارضة القرآن الكريم، ولو معارضة سورة أو آية من آياته.

والثاني: إشهاد شهداء بأن ما يعارضون به حق.

❖ ❖

وظل المشركون يقولون: (لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)، **وهذه نَصَفَة، فليقولوا إذن، وتنتهي المسألة. ولكنهم لم يفعلوا، وعجزوا أن يفعلوا. فثبت التحدي. فلم يكن دافعهم بشهادة الباطل إلا الهوى.**

❖ ❖

ولن يأتي أحد بمثل هذا القرآن إلا إذا كان خالق السماوات والأرض.

(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا).

□

القسم الثاني: الشهادة برسالة النبي

(١) شهادة الله برسالة نبيه:

جاء الحديث عن شهادة الله برسالة نبيه، في سبعة مواضع، كقوله:

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ)،

وقوله: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا)،

أي: شهيدا بأن رسوله على حق.

فالشهيد هو الله سبحانه وتعالى، والمشهود به هو رسالة نبيه صلى الله عليه وسلم، وطرق إثبات هذه الشهادة: البينات، والقسم.

أولا: البينات:

وبينات الشهادة هي:

البينة الأولى: القرآن الكريم.

فالقرآن بينة أقامها الله على شهادته بأن محمدا مرسل من ربه، قال تعالى:

(قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ)،

وقال تعالى: (وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ

وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ).

فعلمه ما في السماوات والأرض، وهو العلم الذي ضمنه كتابه فكان بينة له، هو بينة لرسوله أيضاً.

وقد تقدم الحديث عن أن القرآن الكريم مشهود به، وجعل بينته علمه الذي فيه، فتطابق آياتُه آياتِ الآفاق والأنفس. وتقدم أن القرآن الكريم بينة أنزلها الله، وأقامها على شهادته بوحدانيته. وهنا بيان أن القرآن الكريم أيضا بينة أقامه الله على شهادته برسالة نبيه صلى الله عليه وسلم.

البينة الثانية: إظهار الدين.

قال تعالى: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا)، **فقد جعل الله إظهار دينه بينة على شهادته بصدق نبيه، فلو تم إظهار الدين فقد تحققت البينة، وهذا ما تم فعلا، وختم ذلك بقوله:** (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا).

البينة الثالثة: اتفاق رسالته مع رسالة الرسل.

فكل الرسالات جاءت مبينة أنه ما من إله إلا الله الواحد، لا شريك له، وكل الرسل جاءوا بالدعوة إلى إله واحد. فلو اختلفت رسالة أحد من البشر عن هذا النظام لدل ذلك على أن هذا البشر

كاذب، وليس رسولا من الله.

كما قال تعالى: (قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ).

وقال: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)،

وقال: (وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)،

وقال لعيسى: (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ). إلى غير ذلك من الآيات.

البينة الرابعة: حياته وعصمته.

فحياته محفوظا معصوما، دون أن يصيبه عذاب من الله، فهو جاء وتكلم باسم الله في الأرض، وما كان الله ليذره لو كان مفتريا عليه، بل سينتقم منه. قال تعالى:

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)،

فلو كان محمد افترى القرآن، وادعى النبوة فلا أحد يملك له من الله شيئا، بل سيأخذه أخذا شديدا، كما قال: (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ)، **أي لانتقمنا منه وما استطاع أحد منكم أن يذود**

عنه.

فحياته وعصمته وحفظ الله له، بينة أقامها الله على شهادته بصدق نبيه.

قال تعالى: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ)، **قال الطبري وغيره من أهل التفسير: (يختم على قلبك فينسيك القرآن)، قال ابن عطية: (والمراد الرد على مقالة الكفار وبيان إبطالها، وذلك كأنه يقول: وكيف يصح أن تكون مفتريا وأنت من الله بمرأى ومسمع، وهو قادر لو شاء على أن يختم على قلبك فلا تعقل ولا تنطق ولا يستمر افتراؤك)، وقال ابن كثير: (أي: لو افتريت عليه كذبا كما يزعم هؤلاء الجاهلون لطبع على قلبك وسلبك ما كان آتاك من القرآن).**

وقوله تعالى: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)،

أشار في هذه الآيات إلى البينات الثلاث، في الآية الأولى: بينة (حياة رسول الله دون أن يصيبه عذاب من الله). وفي الآية الثانية بينة (اتفاق رسالته مع رسالة الرسل)، وفي الآية الثالثة بينة (شهادة أهل الكتاب).



ولقد جرت محاولات كثيرة للنيل من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبعضهم حاول سجنه، وبعضهم حاول تسميمه، وبعضهم حاول اغتياله، وبعضهم حاول سحره...

قال تعالى: (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)،
وقال: (وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا).

ولقد عصم الله رسوله من الناس، وحفظه من كيدهم وأذاهم، ودافع عنه، ونصره وأيده، فلم يمسه سوء منهم، بالرغم من تكالب الأمم عليه، ومحاولتهم استئصال شأفته، وتآمرهم عليهم، سواء المشركون أو أهل الكتاب،

قال تعالى: (إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا)، (وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ).

وبين له أنه معصوم، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ). **فعصمه في نفسه، وعصم دعوته، حتى أظهره الله عليهم، ثم لم يمت حتى اكتمل الدين، واختار الرفيق الأعلى بعد أن بلغ رسالة ربه.**



البينة الخامسة: خُلُقه العظيم وبراءته من النقص

كما تحدث الله عن رسوله صلى الله عليه وسلم بما يعرفه قومه، فهم يعرفون عقله ورزانته، ويعرفون رجاحته وحكمته، وكانوا يلقبونه: الصادق الأمين. فكيف يأتي بعد الأربعين حين استوى فيفتري قرآنا ويكذب على ربه؟!

وقد سأل هرقل أبا سفيان: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقال: لا. ثم قال هرقل: "وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرتَ أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله".

وبالرغم من معرفتهم به فقد شهدوا بالباطل، فرموا صاحبهم الذي يعرفونه بالجنون والكهانة والسحر:

قال: (وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)،

وقال: (وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ)،

وقال: (بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ)...

فنفى عنه الجنون والكهانة، وأثبت له الخلق العظيم:

قال: (مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ).

وقال: (فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ

(٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ).

وقال: (فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ).

وبين لهم أنه ما افترى ولا ادعى، بل نزل عليه رسول أمين، فعلمه، وأنزل عليه القرآن:

(وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ).

ولو كان محمد (صلى الله عليه وسلم) مفتريا، لجعل النبوة مغنما، فبنى بها مكانة في قومه، (وقد كان ذا مكانة قبل النبوة، يتحاكمون إليه ويجلونه ويصدقونه ويأتمنونه)، ولأخذ أجرا على دعوته، ثم ورَّث (الخلافةَ) لأقاربه.

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦) قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ).



البينة السادسة: إجراء المعجزات على يد نبيه.

هناك كثير من المعجزات والآيات التي جرت على يد رسوله صلى الله عليه وسلم، وكتب السير مليئة بها. وأشير هنا إلى معجزة

الإسراء والمعراج: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا).

ومعجزة انشقاق القمر، قال تعالى: (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ)، **جاء في الصحيحين أن أهل مكة سألوا النبي (صلى الله عليه وسلم) آية، فدعا النبي ربه أن يشق القمر، فانشق القمر فلقتين، فلقة عن يمين الجبل والأخرى عن شماله، فقال النبي: «اشهدوا اشهدوا» . فقالوا: سحر أعيننا محمد. فقال بعضهم: إن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس أجمعين، فاسألوا الركبان إذا جاءوا من الأسفار. فكلما جاء أحد سألوه: هل رأيت القمر انشق؟ فيقولون: نعم رأينا).**

فهذه الآيات كالآيات التي أجراها على يد الرسل السابقين، كموسى (فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ)، **وعيسى:** (وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي)... **وكناقة صالح، وغير ذلك من الآيات التي أيد الله بها رسله. فهي بينة على شهادته بصدق رسوله صلى الله عليه وسلم.**

ومن تلك الآيات التي أيده بها: إطلاعه على ما كان يخفيه الناس عنه، كما في قصة عائشة وحفصة: (وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ)، **وغيرها من القصص، وقد أشرت لبعضها سابقا. وإنزال ملائكته نصرة له في بدر وغيرها من المشاهد، وقد ذكر ذلك في سورة آل عمران والأنفال.**

ووقوع المعجزات غير محال ولا مستبعد، بدليل حديث القرآن الكريم عنها، والذي أجرى السنن قادر على خرقها، فلا غرابة في التصديق بها. غير أن هذه الآيات تفيد اليقين بطريقة مباشرة لمن كانوا في عهد النبي، أما من بعدهم فهم لم يشهدوا الآيات، ولكنهم سمعوا بها، فهي تأخذ حكم السماع، فما ذكره القرآن الكريم منها أفاد اليقين، وما جاء في الأخبار فحكمه حكم الأخبار.

ولذلك فالله سبحانه وتعالى لم يجعل المعجزات هي الآية الكبرى لرسوله محمد صلى الله عليه، كما كانت للرسل السابقين. بل جعل القرآن الكريم وعلمه الذي فيه هو بينة لشهادته بصدق رسوله صلى الله عليه وسلم.

❖ ❖



ثانيا: القسم:

أقسم الله سبحانه وتعالى على أن رسوله حق، وأنه مرسل من ربه،

قال تعالى: (وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ).

وأقسم على أنه صلى الله عليه وسلم ما ضل وما غوى، بل يقول ما أوحي إليه، وأنه علمه جبريل، فقال:

(وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى).

وأقسم على أن رسوله أهل للرسالة، فهو مبرأ من النقص البشري، وأنه على خلق عظيم، قال:

(ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ).

وأقسم على أنه حفظ رسوله، ورعاه، صلى الله عليه وسلم، فقال:

(وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى).

والقسم كما ذكرت سابقا هو طريق من طرق إثبات الشهادة.

□

(٢) شهادة أهل الكتاب برسالته:

أخذ الله سبحانه وتعالى الميثاق على الأنبياء السابقين، قال تعالى:

(وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ).

فالميثاق المأخوذ عليهم بينةٌ أقامها الله لشهادته بأن رسوله حق. وهذا الميثاق مسطور في الكتب السابقة، وأهل تلك الكتب يعلمونه علم اليقين، والقرآن الكريم يحاجّ أهل الكتاب بهذه البينة، ويطلب منهم أن يشهدوا بذلك، فأنبياؤهم قد شهدوا وهم يعلمون، ومن ثم يكون الأنبياء السابقون بينة على صدق شهادة الله بأن رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم حق. وشهادة أهل الكتاب بصدقه بينة على أنه حق من عند الله. ومن تولى عن هذه الشهادة الحق، وشهد بالباطل فهو الفاسق.

قال تعالى: (قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ)، **أي: وأهل الكتاب الذين يعلمون هذه الشهادة، ويشهدون بها.**

وقال تعالى: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)، **أي: شهداء بصدقه، بما عندكم من غيب اطلعتم عليه دون غيركم، وهو في الكتب التي بين أيديكم.**

وقال: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)، **أي: تشهدون بصدقه. فهم شهداء بصدقه سواء أظهروا الشهادة وبينوها للناس، أو كتموها، كما في الآية الثانية. كما قال تعالى عنهم:** (كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)، **فشهادتهم ثابتة في كتبهم التي يؤمنون بها، ومن ثم فإيمانهم بتلك الكتب هو شهادة منهم بما فيها، ومما فيه صدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم.** (وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ)، **فهم يعلمون ذلك وإن لم يظهروه.**

ولكن كثيرا منهم كتموا. (وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)، **وقال:** (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ). **ولذلك قال الله لهم:** (أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ).



والقرآن الكريم يبين لنا أنّ ذِكْر محمد صلى الله عليه وسلم قد جاء في تلك الكتب، فهي مبشرة به، ومن ثم فأهل الكتاب شهود بصدقه.

قال تعالى: (وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ

عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ)، **اختلف المفسرون في مرجع الضمير في (وإنه)، فقال بعضهم: القرآن الكريم، وقال بعضهم: الرسول صلى الله عليه وسلم. والمرجح أنه يعود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو المذكور في زبر الأولين، وهو الذي يعلمه علماء بني إسرائيل، وهم شهود به. وآيات القرآن الكريم مطردة في استشهاد أهل الكتاب بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد أوردت بعضها آنفاً. أما القرآن الكريم، فالشهيد به هو الله وملائكته، كما سبق بيانه.**

وقد وردت صفات الرسول صلى الله عليه وسلم كاملة في تلك الزبر، كما قال تعالى: (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ). **ولذلك فكان أهل الكتاب يعرفون النبي كما يعرفون أبناءهم:** (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ).

وقد جاء عيسى عليه السلام بأمرين، الأول: التصديق بالتوراة وهي رسالة موسى عليه السلام، والثاني: التبشير برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ). **وقد سمي الإنجيل بهذا الاسم، والإنجيل لفظة يونانية تعني: البشارة. فهو جاء بشارة بمجيء النبي صلى الله عليه وسلم.**

وقال تعالى: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ

فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ). **فوصف الرسول صلى الله عليه وسلم ووصف أصحابه جاء في التوراة والإنجيل مفصلا.**

وبالرغم من تحريف زبر الأولين، من قبل مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم ازداد تحريف أهل الكتاب لكتبهم بعد مجيئه، إخفاء لأوصافه عن الناس؛ حتى لا يتبعوه. فقد بقيت نصوص عديدة وإشارات دالة عليه، ومنها:

في (التوراة المحرفة): يقول الرب تعالى لموسى: (سأقيم لبني إسرائيل نبيا من إخوتهم مثلك أجعل كلامي في فيه، ويقول لهم ما آمره به، والذي لا يقبل قول ذلك النبي الذي يتكلم باسمي أنا أنتقم منه ومن سبطه).

وفي (الإنجيل المحرف): (إن المسيح قال للحواريين إني ذاهب وسيأتيكم الفارقليط روح الحق، لا يتكلم من قبل نفسه، إنما هو كما يقال له، وهو يشهد عليَّ وأنتم تشهدون؛ لأنكم معي من قبل الناس).

وهناك عشرات النصوص في هذين الكتابين، وفي غيره من الكتب المقدسة لدى الأمم الأخرى.

❖ ❖

وقد حاجّ الله مشركي العرب وغيرهم، بشهادة مَنْ أظهر شهادتَه مِن أهل الكتاب، فأهل الكتاب قد شهدوا بصدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وهم عندهم علم الكتاب، فتكون شهادتهم حجة على غيرهم ممن ليس لديهم الكتاب،



فشهادة أهل الكتاب برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، شهادة صادقة، وهي شهادة حق، وقد أثبت التاريخ كثيرا من أحبار أهل الكتاب ورهبانهم، الذين شهدوا بذلك، وكل من أسلم من علمائهم فإسلامه شهادة برسالة محمد صلى الله عليه وسلم.



□

(٣) جدال شهود الباطل:

تلك شهادة الله برسالة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وقد أثبتها بما يفيد اليقين التام. ولكن شهود الباطل رفضوا أن يشهدوا بالحق، وكفروا به، وقالوا أنه ليس مرسلا من ربه. وقد سجل القرآن الكريم شهادتهم، وجادلهم، ودحض حججهم. ويطول المقام لو أردت تتبع ذلك الجدال. غير أني أذكر طرفا منه.



فهم أولا، استنكروا أن يرسل الله بشرا،

(ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا).

وقالوا لو أرسل الله فسوف يرسل ملكا. فقال الله لهم: لو كان في الأرض ملائكة لأرسل إليهم ملكا:

(وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (٩٤) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا).

ولو أرسل الله إليهم ملكا لجعله بصورة بشر، حتى تتوافق أنظمة الخلق، فلن يظل بصورته، ومن ثم يحدث اللبس نفسه لديهم:

(وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ).

والمشركون الذين أنكروا أن يرسل الله بشرا، هم صورة تجسيدية للنصارى، الذين ألهوا بشرا، فهو جاءهم بشرا رسولا، وجعل الله على يديه معجزات، فآمن به من آمن وكفر به من كفر. وبعد رفعه إلى السماء اختلف الأحزاب فيه، واستقر رأي غالبيتهم على أنه ليس

بشرا، بل هو إله تجسد في صورة بشر. فهو إنكار مبطن لبشرية الرسول، وإن آمنوا بمن قبله من الرسل.

فالأنبياء هم بشر يأكلون كما يأكل البشر، ويشربون كما يشربون. (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ). و**قال:** (مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ)، **فهم يأكلون الطعام كغيرهم من البشر، فكيف يكونان آلهة!!**

ولذلك كان الله يأمر رسوله في القرآن الكريم أن يقرر بشريته، وأنه بشر مثل البشر، وأنه لا يختلف عن الناس، فهو ليس بإله، ولا هو بملَك، بل هو بشر:

قال: (قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ)،

وقال: (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ).

فكون الرسول بشرا، يعني أنه مثلهم، لا يختلف عنهم في البشرية، فيكون قدوة من (البشر) لهم، ولو كان ملكا، لتعللوا: (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ).

وحقيقة إنكار الناس لبشرية الرسول، إنما هي غلاف لإنكارهم للشرائع، وللمعاد، حتى يفعلوا ما يريدون في الدنيا، دون شعور بالرقابة، ودون هاجس الحساب والجزاء. فهم يقولون: لن نصدق إلا إذا بعث الله ملَكا، والله لم يبعث ملكا، وهم يعلمون أنه لم يأت ملَك كنبي بشري، ومن ثم فالنتيجة هي أن الله لم يبعث أحدا، كما

قالوا:

(قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ).



ثم إنهم سلموا بأن الله يرسل بشرا، ولكنهم قالوا: كيف يختار الله واحدا من البشر فيرسل إليه ملكا، فلم لم يرسل الملك إلى كل البشر: (وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ). **أي الله يختار من شاء لرسالته، ويختار ما شاء من الآيات المؤيدة.**

كما قال قوم صالح: (فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ)، **أي فلم نتبع واحدا منا؟ لِمَ لَمْ يلق الوحي علينا كلنا؟!**



ثم إنهم سلّموا بأن يكون الرسول واحدا من البشر، ولكنهم استنكروا أن يختار الله محمدا، فلم لم يختر غيره، كرجل من عظماء القوم: (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ)، **فقال الله لهم:** (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ)؟! **أي: فهل جعل الله لهم رحمته (والنبوة رحمة)، فيقسمونها، فيعطون من شاءوا ويمنعون من شاءوا؟!**

وكأن الله نسي أن يستشيرهم فيمن يرسله؟! يا لجهالتهم وتطاولهم على ربهم،

فليست بأيدهم رسالته، ولا بأيديهم خلقه، ولا بأيديهم ملكه، ولا بأيديهم رزقه. فكيف يمنحون لأنفسهم حق الاختيار؟!!

فهو يخلق ما يشاء ويختار، وليس هم: (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ). **وهو ما استأذن أحدا من خلقه أيخلقه أوْ لا، ولم يشهده على ذلك** (مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ)، **ولا هو الذي يستأذن خلقه فيمن يبعثهم.**

وهو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وليس هم: (اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ)؛ **فخزائنه بيده وليس بأيديهم:** (أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ).

وهو الذي يؤتي ملكه من يشاء، ويؤتي من شاء ما شاء من الملك والفضل: (تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ)، **وقال:** (أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ). **فملكه بيده وليس بأيديهم:** (أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ).

إذن فهو يرسل من يشاء ويختار، وليس هم: (اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ).

وهذا ما قرره الأنبياء السابقون: (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ). **يقولون: الله هو من اختارنا للنبوة، ولو لم يخترنا ما أيدنا بمعجزاته، ولا أمدنا بسلطانه.**



ثم إنهم سلموا بأن يكون الله بعث بشرا رسولا، وأنه اختار واحدا منهم، وأنه اختار محمدا (صلى الله عليه وسلم). ولكنهم جادلوا في الآيات التي جاء بها، فاشترطوا آيات معينة يأتي بها النبي ليؤمنوا. قال تعالى:

(وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (٩٣) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (٩٤) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (٩٥) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا).

فهذه الشروط عديدة، منها: معجزات حسية، كما قالوا: (فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ). **ومنها: تنفيذ العذاب الذي وعدهم به لو كفروا، ومنها: اشتراط أن يكلمهم الله عيانا أو تأتي الملائكة ليشهدوا بصدقه....**

فمن لم تنفعه آيات الله وبيناته التي جعلها مؤيدة لشهادته بصدق رسوله، وهي الحجة البالغة، فلن تنفعه آيات سواها.

قال: (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ)،
وقال: (وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ)،

وقال: (وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آية لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا).

والله سبحانه وتعالى لم يستجب لطلبهم، فالشاهد يثبت شهادته بالطريقة التي يعلم أنها أجدى وأنفع وأقوم. أما طلب المشركين فكان تعنتا، وهم لا يعلمون ما يعلمه الله، فتلك الآيات آيات آنية، إن صلحت أن تكون دليلا لهم فلا تصلح أن تكون لمن بعدهم. فالله يعلم الغيب وليس هم،

(وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ).

ولذلك فكان الله يجيبهم بأنه قد جعل لهم الآيات في خلقه وفي كلامه. فهي كافية لهدايتهم:

(وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ). وقال: (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧) اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ)،

فأجابهم بعلمه الغيب والشهادة.



ومع تسليمهم بكل ما سبق، فقد جادلوا، وقالوا بأنه بشر، يسحرهم بما يأتي به: (وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ). **لقد جاءوا ظلما وزورا:** (قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ).

كما قال من قبلهم، بأن النبي ليس إلا بشرا مثلهم، يستخدم

النبوة للحصول على مكاسب مادية، ويحقق من خلالها مكانة اجتماعية، وأهدافا سياسية...

قال: (فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ)،

وقال: (مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ).

ومن ثم لم يكن لهم بعد ذلك إلا الاستهزاء والسخرية:

قال: (وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ)،

وقال: (وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا).

وهذه السخرية تتجدد اليوم، بثياب جديدة، تحمل طابع ما توصلت إليه البشرية من قدرة على السخرية والاستهزاء. وهذا دليل العجز والإفلاس، فالمهزوم حين يعجز عن التحدي، يذهب إلى السخرية، كما قال العربي قديما: (أوسعوني ضربا وأوسعتهم سبّا)، فهم ضربوه، وهو حين عجز عن تحديهم، انتظر حتى ابتعدوا عنه فقام بسبهم. وهؤلاء الساخرون كذلك، حين عجزوا عن إثبات كفرهم، وتكذيب رسول الله، لجأوا إلى السخرية منه.